

منى حلمى

مكتبة مدبولى

بدون أوراق

الطبعة الأولى
١٤١١هـ — ١٩٩٠م

الغلاف بريشة الفنان : تاد

إهـــــــداء

إلى إله داخلي، يستهويني كثيراً عصيانه ...

إلى، كل ما يخيفني علني أتصالح معه ...

إلى، خضرة الشجر
إلى، لحظة مساواة تشاركنا السهر...

إلى، حكمة لا يبلغها أرق المساء ...
إلى، الماء أصل الحياة ...
إلى، انتشائي بملمس الأشياء ...

إلى، عبث الحياة أدركته .. أحببته
فكانت أول خطوة فى رحلة الألف ميل للمعنى...

إلى، عاشقة تولد بعد مماتى لها فصيلة دمى
تكرر تاريخى فى العشق والكلمة
وتحمل رعشة الابتسامة على فمى...

وإلى ، جسد ــ بإرادتى ــ أحمله
ورغماً عنه ، يحملنى ...

إلى، لحظات الوحدة تبقيني لا منتمية...

إلى، صدفة دوماً تمنيتها وأبداً لم تحدث ولو صدفة...

وإلى، يوم لن يشهد وجودى عله برقة، بأمانة، يتذكرنى ...

إلى، عشق لم يعط اللثام
عـــن أســــــرار أنوثتـــي...

إلى، قانون الوراثة
دون انتظار مشورتى
أهدانى الكتابة فنا
بدونه لا أتحمل الحياة
ولا تتحملنى الحقيقة...

إلى، صوت أم كلثوم
الذى علمنى التواضع
كلما استمعت إليه
أدركت أن حتى العظيمات يدركهن الموت...

إلى «مزيكة» «سيد درويش»
متعة لا أملك من عذابها فراراً...

إلى،ميراث البشرية
الراقـــد خلفـــي
ويدفعني إلى الامام...

إلى،عالم يفرح .. يحزن .. يصلى .. يتحاور
فى هـــــدوء ...

إلى، «نيتشه»
صديقى الفيلسوف
معه أتجاوز كل ضعف
أقــــرأه
أتعالى لأصبح أكثر من أنا

وإلى دمـــــي
حار فيّ وحرت فيه
ومع النزيف الحيرة أو الحيرة النزيف
أولد .. أتشكل .. أختلف .. أتشجع
لأصبح
« أنـــــا »

قصـــة متكـــررة



أستيقظ من النوم، أقصد من عدم النوم.

بسرعة أرتدي الروب الأخضر. ولا أدرى لم السرعة. أفتح النافذة فى حجرتى.. أرتب الفراش بسؤال مندهش: لماذا تعتريه الفوضى؟ أجذب فوطة صغيرة أعلقها بجانب النافذة، وبحركة أقرب إلى الجرى أزيل التراب عن محتويات الشقة الصغيرة.

أستريح لإزالة الغبار.. تدهشنى الراحة.

أخلع الروب الأخضر.. أغسل عن جسمى بقايا من شىء مجهول.. أغسل عن وجهى ملامح حلم يصر على البقاء حلماً، أمسك بالفرشاه وأنظف أسنانى فى عكس الاتجاه المفروض للتنظيف والحفاظ على اللثة. تدهشنى نظافتها رغم تحدى نصيحة طبيبة الأسنان.

أذهب لإعداد فنجان القهوة. أشربها دون لبن.. دون سكر.. تتعب معدتى وأعصابى، لكننى أدمنتها وفات أوان الشفاء.

أتردد أين أضع فنجان القهوة.

على المائدة الخشبية الصغيرة، أم على المكتب؟ إذا وضعته على المائدة، سيكون فى متناول يدى، لكنه سيفسد خشب المائدة. وأنا عاشقة قديمة للخشب.

المكتب يحل هذه المشكلة. لأن فوقه لوح زجاج يمكن بسهولة تنظيفه. لكن فى هذه الحالة، لن يكون فنجان القهوة قريباً منى بالقدر الكافى المريح.

أحسم الأمر لصالح الخشب.

أتذكر أننى نسيت إحضار جريدة الصباح من أسفل عقب الباب. أحضرها وأجد معها مجلة أسبوعية تنشر كتاباتى.

آخذ رشفة من فنجان القهوة، وأتصفح الجريدة اليومية والمجلة الأسبوعية.

تواجهنى أخبار بخطوط عريضة سوداء: «مصرع فنان مشهور.. فرع جديد لملابس المحجبات.. اختطاف طائرة مدنية.. انتحار زوجة من الطابق العشرين.. اسرائيل تواصل شن الغارات.. مؤتمر دولى للسلام.. يقتل أخته لخروجها دون إذنه.. مسابقة «ومبى» للفوز بسيارة.. فرص عمل للذكور فقط.. اغتيال زعيم فى جنوب أفريقيا.. خطة جديدة لتوفير المساكن.. مسابقة دينية لحفظ القرآن للنشء بمكافآت مالية.. سهرة العمر مع نجمة الرقص الشرقى.. قضية رشوة تفضح مسئولاً.. عيد ميلاد رئيس تحرير الجريدة».

أشعر بإنهاك ودوار. أندهش، فلم يمض على تركى الفراش سوى نصف ساعة.

أرسل أمراً إلى جهازى العصبى، بأن يهدأ.. ويتحمل. بلهفة أدقق فى صفحات المجلة الأسبوعية. لا شىء لى.. لا المقال.. ولا القصة التى أرسلتها منذ سبعة شهور.. ولا القصيدة الأخيرة.

القهوة تبرد.. وشىء من السخونة يتسرب إلىّ.

آخذ قراراً بالتركيز فقط فى شرب القهوة المتبقية. ويدهشنى القرار. ما الذى يمكن أن يشتت فكرى وإحساسى مع بداية يوم جديد؟!

أتجه إلى النافذة.. أنظر منها.

أسكن فى طابق مرتفع، لكننى أشم وأبلع الدخان الأسود والرمادى والأزرق المنتشر فى الجو.

زحام سيارات معتاد.. كمية معتادة من ضجيج غير محتمل.. شتائم من كل الأنواع، تختلط بالهواء فتزيده تلوثاً.

أنظر إلى ساعتى، فأهرول لارتداء ملابسى، على أنغام موسيقى أديرها ولا أستمع إليها.

أنزل إلى الشارع.

معاكسات تستقبلنى وصفافير بعض الصبية دائمى الوقوف على الناصية..

أزيل الغبار المتراكم على سيارتى الصغيرة .. وأتوجه إلى مكان العمل. كرهت قيادة السيارة، التى ترغمنى على فقدان إنسانيتى.

أصل .. وأدخل المبنى الكبير.

تدخل معى نظرات المسئول عن مواعيد الحضور والانصراف. وتبدأ الالتزامات.

لابد أن ألقى تحية الصباح رغم أننى لا أريدم. لابد أن أبتسم رغم أننى لا أريد. لابد أن أبدأ بالمرور على وجوه لا وجوه لها. لابد من تحمل ضوضاء الحجرة المجاورة.. لابد من تحمل النظرات المتطفلة والكلام الهامس عن خصوصيات الآخرين والأخريات.. لابد من تحمل ضيوف قادمين بضحكات مرتفعة.. لابد من رؤية صور زفاف زميلة واستحسان العريس والتورتة ذات السبعة أدوار.

تأتينى واحدة متطوعة لجمع مبلغ من النقود، لأن فلاناً تزوج، وفلانة حصلت على الدكتوراة. أعتذر عن عدم المشاركة، فترحل المتطوعة مندهشة.. مستنكرة. وتلقى مع خطوتها البطيئة، نظرة سريعة تحاول اختراقى لتفهم شذوذى ولا أعطيها فرصة الاختراق.

أجلس إلى مكتبى. أخرج من الأدراج غير المحكمة، أوراقى غير المتجانسة. وأذهب لاجتماع طارىء.

فى الاجتماع، أجلس على مقعد أمام نافذة لا تسمح بدخول الهواء، بها زرع أخضر توقف عن النماء.

فى الاجتماع، تتبارى الأصوات فى الارتفاع.. لا فى قول شىء جديد. لا أحد ينتظر الآخر إلى حين ينهى الفكرة أو التعليق. لا بد من المقاطعة ودون اعتذار.. لا أحد يأخذ بجدية ما يثار.. لا بد من إقلال شأن الآخرين.. لا بد من استعراض آخر القراءات وآخر الأمزجة النفسية، حتى ولو كانت لا تنتمى —من قريب أو بعيد— إلى موضوع الاجتماع.

فى مثل هذه الأوقات، تسعدنى كثيراً الفرجة. أتأمل تعامل الناس.. كلامهم.. حركاتهم وأندهش من غياب أبسط معانى الحساسية. أندهش من الغباء الذى يدفع صاحبه، إلى فضح اضطرابه النفسى دون أن يدرى.

أذهب إلى مكتبى. أطلب فنجان قهوة وقرص إسبرين. قد أكمل كتابة قصة أخيرة.. قد أبدأ مقالاً جديداً.. لكننى بالتأكيد أقرض أظافرى وأشرد بعض الوقت.. وأنصرف، حين أشعر بانتهاء العلاقة بينى وبين المكان.

يجىء وقت الأكل.. آكل. يجىء وقت الصمت.. أصمت. يجىء وقت الدواء الذى أتعاطاه دون إشراف طبيب. أكلم نفسى بصوت مسموع للجميع، إلا نفسى. أتذكر شيئاً دائم النسيان.. وأقرر أن أداوم على عدم التذكر.

يجىء وقت الرياضة .

أحمل الحقيبة السوداء المخصصة للرياضة والرحلات . أذهب إلى ممارسة التنس والسباحة . وفى طريق عودتى أتأمل الشجر والشمس المقتربة من المغيب . لون له كل الألوان ، يظهر فى الأفق ، ويصيبنى بحسرة لا أفهمها .

يجىء وقت المساء .

آخذ قسطاً من الراحة ، يتعبنى . أتصل ببعض الأصدقاء .. أشعل سيجارة أو اثنين .. أتبادل مع أسرتى أحاديث عابرة ، لا أركز فيها . بداخلى حنين إلى أحاديث أخرى ، لا تحدث . أتحرك على موسيقى راقصة .. أستلقى على مقعد وأنا أستمع إلى إحدى أغنيات « أم كلثوم » القديمة ..

أذهب لإعداد فنجان آخر من القهوة . معه أعد أحساساً قديماً من التمنى ، لا يمل مصاحبتى .. لا يمل عدم التحقق .

جاء وقت الكتابة .. كتبت .

جاء وقت البكاء .. بكيت .

جاء وقت الاكتئاب .. اكتأبت .

نظرت فى المرآة .. نظرت من النافذة .. استقبلت زيارة .. استقبلت الهواء .

قلقت .. قرأت .. ابتسمت .. توترت .. تنهدت .

لا شيء يشدني إلى الشاشة الصغيرة .. لا شيء يشدني إلى الخروج .

الأشياء اليومية .. الواجبة .. الضرورية ، كلها فعلتها ..

كل يوم ، اليوم ذو الأربع والعشرين ساعة لا يريد الانتهاء . هناك وقت ما ، متى بالتحديد ؟ ، لا أعرف . لكنني أعرف أنه لا يحدث . ما هذا الفعل الساقط ؟!

كل يوم ، شيء ما ينتظر البقية . لا يهم إن كان مريحاً أم مرهقاً .. أضطر إليه أم أحبه .. المهم أنه ككل الأشياء الأخرى اليومية واجب وضروري .

كل يوم يتكرر حدوث الأشياء .

كل يوم يتكرر إحساسي بعدم حدوث ذلك العمر المخصوم من عمري . ولا أملك شيئاً إلا معاودة التساؤل .. ومعاودة فعل الأشياء نفسها .. بالترتيب نفسه .. بالإيقاع نفسه .. بالدهشة نفسها .. والتردد نفسه .

إلى أن أكتشف ذلك الوقت الضائع المحسوب عليّ ..

أربعاء التذكر الأخير



ما زال أمامها عشر دقائق وتكمل عادتها القديمة. تحاول أن تتذكر منذ متى وهى تسير هذه الساعة اليومية. تستعيد علاقتها بالطريق المغطى بالأشجار، القريب من بيتها، يصبح مع اقتراب الشتاء طريقاً لها وحدها.

يسقط المطر، فتأخذ مظلتها الخضراء وتخرج إلى الطريق. تراقب تبلل ذكرياتها بالماء. تنتظر حتى تفرغ السماء، لترى أجزاء نفسها على فروع الشجر، أكثر خضرة واشراقاً. تتساءل بعد كل مرة مطر، هل تريد هذه الخضرة المشرقة أن تقول لى شيئاً؟ تشعر أن الطبيعة لها حكمتها التى تمر دون ان ندركها. تدهش لأن الناس من حولها يعطون وقتهم واهتمامهم لكل شىء إلا التأمل. لها معه تاريخ طويل. فكيف تفوتها حكمة المطر؟

سبعون عاماً.. رقم أصبح يتحكم فى حياتها. خلال الرحلة الطويلة، لم تسمح لأحد أو لشىء أن يكبل حريتها. والآن يأتى مجرد رقم —نصف صفر— ليجعل منها امرأة عجوز، أنهت مهمتها، أقرب إلى العالم الآخر منها إلى العالم المعاش. والنصف الآخر رقمها ذو العلاقة القديمة بها. اختارته من بين كل الأرقام ليكون

مصاحباً لمولدها، وهى بعد لم تميز بين الأيام. كان استثناءاً حين يريحها وحين يزعجها. فى الحالتين كان رقاً له مذاق الحياة.

تصعد السلالم المغطاة بالتراب وأوراق الشجر المتراكمة. تصعد بحرص حتى لا تنزلق على الدرجة السابعة المكسورة. تتوقف لحظة على هذه الدرجة، وتتذكر.حتى هذا الكسر الذى يسكن قبلها فى المكان ويعوق أحياناً حركتها دائمة السرعة، أحبته، ودخلت معه فى علاقة، هى وحدها التى تفهمها. كان يبدو للجميع خللاً عن النظام الطبيعى، ولها.. كان رمزاً لطبيعة الحياة. فى كل مرة تعود من سهرتها منتشية، متألقة كانت تتساءل، هل الحياة فقط سهرات مرحة؟ ماذا بعد هذا الانتشاء؟ كان السؤال ضرورياً حتى لا يخدعها بعد واحد للحياة. وكانت الدرجة السابعة المكسورة رمزاً للبعد الآخر، فاكتملت داخلها طبيعة الحياة.

«الرقص أو أنا.. عليك ان تختارى».

تأخذ رشفة من فنجان الشاى، وتتذكر تلك المقارنة المتكررة فى حياتها.

كانت فى بدء شبابها راقصة تتمتع بشهرة واسعة. لم يكن قوامها الطويل المتناسق، وعشقها المولع بالرقص، هما سببا شهرتها فقط. كان تميزها الحقيقى أنها ترقص بعقلها، وليس بجسمها وحده. كانت تفكر كثيراً قبل أن ترقص. كانت تتساءل: ما فائدة ثقافتى، وأفكارى، وانسانيتى، إن لم أرسلها فى حركاتى إلى الآخرين؟

«راقصة ؟!.. أبعد كل هذا التعليم تنتهين إلى الرقص؟ لم نسمع أبداً عن فتاة نالت درجة الماجستير، ثم تركته لتهز جسمها» .

ترتفع الأصوات مندهشة .. مستاءة من حولها .

تقول : «اخترت شيئاً لا يصنع فاصلاً بين حركة عقلى وحركة جسمى» .

يقولون : «لديك موهبة الكتابة» .

يأتى ردها : «ما أقوله فى قصة ، أقوله فى رقصة . الرقص أكثر قدرة على الاقناع من الكتابة . الرقص هو الطبيعة . ألم يرقص الإنسان قبل أن يعرف اللغة ؟ اتركونى أعود إلى الطبيعة» .

كانت متميزة حقاً . فزميلاتها الأخريات يرقصن بدون قضية . يرقصن بثياب تساعد الأعضاء على مزيد من الإهتزاز. ثياب تكشف الجسم ولا تكشف فلسفة للحياة .

تأخذ رشفة أخرى من فنجان الشاى الذى بدا متجاوباً مع موقفها ، مستمتعاً بذكرياتها ، فإذا به أكثر سخونة كلما تذكرت شيئاً قديماً .

كثيرون مروا بعمرها . اختلفت الأسماء ، اختلف لون العيون ، تفاوت حجم الممتلكات ، لكل منهم حركات مميزة ، مواضيع اهتمام مثيرة ، ماركات السيارات مختلفة والطباع مختلفة . شيء

واحد كان يجمعهم ، شيء واحد علا فوق الممتلكات ، ولون العيون ، وفرض نفسه على كل اختلاف .

جمعتهم الرغبة فى تحديد حركة ذلك العملاق الراقص داخلها ، ليصبح أسير التنقل بين حجرات منزل مكيف الهواء ، يخنق أنفاس العملاق .« الرقص أو أنا .. عليك أن تختارى » .

وكان ردها ممارسة . تدعو السائل إلى حفلتها فيراها وهى ترقص . يرى الرد فى كل كيانها يتحرك ، ويملأ المكان أعلى من كل الأصوات ، فيرحل الضيف مع سؤاله قبل أن يشرب شيئاً ، وقبل أن ينهار المكان من قوة الرد .

اشتد الهواء فى الخارج ، فاندفع إلى حجرتها يعبث بنظامها الدقيق . تجرى إلى النافذة . تشرد لحظة . تتذكر شيئاً يصر على أن يظل منسياً . تغلق النافذة .

يدق الجرس . تدق الساعة القديمة القريبة من بيتها . دائماً فى الموعد . تعرف هذه الدقات المرتعشة على الباب . دقات انتظمت فى زيارتها مساء كل أربعاء الساعة السابعة . عادة بدأت مع بداية صداقتها . سنوات طويلة مرت دون أن يتغير الميعاد ، دون أن تتغير لهفتها . تجرى نحو الباب لتستقبل صديقتها الوحيدة .

« تبدين اليوم منشغلة البال ، هل حدث شيء ؟ »

أسأل صديقتى الوحيدة . تنظر إلىّ ، ولكننى أعرف أنها لا ترانى .

أعدت السؤال. تسند رأسها إلى الوراء، وترد بعد لحظات شاردة:

«غداً اليوم الثامن من الشهر.. يوم ميلادى. سأكمل سبعين عاماً. ألا ترين أنه سبب كاف للانشغال، بل للإكتئاب؟».

قلت: «ان وراءك ماضياً يدعو إلى الفخر لا إلى الاكتئاب. هل نسيت انك مؤلفة الموسيقى الأولى فى هذه المدينة؟ هل نسيت نجاحنا الطويل المستمر. أنت بنغماتك، وأنا بحركاتى»

قالت: «تقولين ورائى. وأنا أريد شيئاً أمامى. لكنهم لا يعترفون الا بالصغيرات الجميلات. أما أمثالنا فلم يبق لهن الا انتظار الموت، ولا حق لهن فى الاعتراض»

يسكتنى منطقها لحظة، يصيبنى بشىء غامض، ولكننى أرد وكأننى امسكت بالمنطق البديل «إن الصغيرات الجميلات كثيرات. ولكن كم منهن تعيش سبعين عاماً من الصدق والتميز مثلك؟ يحزننى كثيراً ان تفكرى بهذا الشكل! امرأة لها ماضيك لا تصيبها الشيخوخة أبداً»

وقفت صديقتى الوحيدة. جرت إلى المرآة المعلقة عند مدخل الحجرة، وقالت، وهى تتحسس بشرتها:

«وماذا تقولين عن هذه التجاعيد المحاصرة هذا الشعر الأبيض؟ أليست شيخوخة؟»

وقفت أنا الأخرى، اقتربت منها. عكست المرآة صورتين متشابهتين تحاولان العودة إلى الأصل. قلت:

«ما ينقصك هو تغيير الألفاظ. لم لا تكون كل تجعيدة اعترافاً من الزمن بهزيمته امامك؟ لم لا تكون كل شعرة بيضـــاء ذكرى تجربة نادرة؟» تبتعد عن المرآة .تلتقط الوشاح الأزرق ــ رفيقها الدائم منذ الحصار الأبيض لرأسها ــ تخرج منها تنهيدة وتقول:

«كم أحسدك على هذا التفكير. بدأنا الحياة معاً، عشناها بصداقة نادرة، وتوافق يمتد طول الحياة. ومعاً كبرنا، أو أنا وحدى التى كبرت. لا أذكر أنك تكلمت مرة واحدة عن الزمن. دائماً منشرحة الصدر، متفائلة رغم التجاعيد والشعر الأبيض، لم تحدثينى مرة واحدة عن اقتراب الموت أوعن الوحدة. كنت دائماً أعترف لك بخوفى منه، وانتظارى له بانتظام كل ليلة حين استعد للنوم.

أســـألها:

«ألا زلت تنتظرين؟ وإلى متى؟»

قالـــــت:

«لا أحب أن أفاجأ بالنهاية بعد أن عشت أخطط لحياتى بارادتى»

ســـألتها:

«ولماذا تنتظرين بالذات فى المساء؟»

تنهيدة أخرى أكثر عمقاً، تذهب عيناها إلى أفق بعيد. تقول وهى بعد لم تفق من شرودها:

كل من عرفتهم جاءت نهايتهم فى المساء، وبالتحديد بين الساعة التاسعة والحادية عشرة. وقد قررت الا أنام فى هذه الفترة. يجب أن أكون فى قمة يقظتى حين أغفل إلى النهاية»

أصابنى كلامها بالشىء الغامض نفسه. سكت لحظة ثم قلت:

«أشفق عليك من هذا الانتظار. إنه موت من نوع أخر، أشد وأقسى. الانتهاء جميل إذا عشت حياتك كما ترغبين. لم لا تتقبلين الحياة بكل ما فيها؟»

تقول وهى تتجه نحو الباب:

«سأضطر إلى النزول الآن، فالساعة تقترب من التاسعة».

تقبلنى، تنظر إلّى لحظة، ثم تتركنى.

على غير عادتى جريت بلهفة إلى النافذة، لأرقب خيالها الطويل يتحرك بين الأشجار. تحركت الذكريات معه فتذكرت رحلتنا الطويلة. كانت تفهم التمرد داخلى، لأنه يكمل تمردها. أتذكر اللحظات التى كانت تدعونى فيها. أجلس فى هدوء، ومن بعيد أراقبها، وهى تترجم تمردنا إلى أنغام تعزفها على البيانو. ويأتى الغد فتتحول نغماتها إلى حركات راقصة تسرى فى كيانى. كنت أفهم كل نغمة، وكانت تفهم كل حركة. أحياناً كنت أجد صعوبة فى أداء بعض المعانى فتأتى نغماتها تكمل قصورى،

فأشعر بالهدوء. وعندما تعجز عن تجسيد فكرة، تقوم حركاتي بالبقية، فتشعر بالرضى. كم كان صعباً في البداية ان نفرض نظرتنا الجديدة للموسيقى والرقص. أعترف أنني كدت في بعض الأوقات أن أفقد حماسي وتفاؤلي. لكنها كانت دائماً بجانبي، تعيد اليّ الثقة، وتقول:

«لست أنتِ التي تضعف في أول الطريق». والآن، يا صديقتي، تضعفين أنت في آخره.

لم أعد أرى خيالها بين الأشجار. وعاد الطريق خالياً إلا من أوراق الشجر المتناثرة، هادئاً إلا من صوت بقية الأوراق التي لم تقع بعد تنادي رفيقاتها التي سقطت.

تتجه إلى حجرة نومها.. تقع عيناها على الساعة الكبيرة القديمة المعلقة على الحائط. تتذكر أنها تعمدت ايقافها، واكتفت منها بالمنظر الجميل. لا لأن الصوت يزعجها، فحسب، ولكن لأنها تكره الساعات بشدة. الساعة الوحيدة الصغيرة التي لديها تخفيها بين محتويات حقيبتها. وجود الساعة حول يدها، اعلان فاضح عن خضوعها لزمن لم تشارك في حركة عقاربه.

تذكرت أنها هذا المساء، تتذكر كثيراً. اندهشت. فلماذا الليلة بالذات تنتعش ذاكرتها بأشياء غائرة في أعماقها. الليلة تشعر اكثر. والرؤية أوضح من أي وقت مضى.

الشقة ذات الحجرات الثلاث هادئة كملامح صاحبتها ذات السبعين عاماً، متزاحمة الأشياء كداخلها. تشعر بملل من هذا الهدوء

الذى لا يوافق تدفق الحياة فى كيانها. تشعر برغبة قوية فى الخروج، والضحك، والرقص. ترتدى ثوباً منذ ان اشترته، وهى تحتار فى لونه. هو أقرب إلى الأخضر، ولكنه ليس بأخضر. به بعض من الأصفر، ولكنه ليس بأصفر. يخيل إليها أنه بعض من كل الألوان، ولكنه ليس أياً منها. ومع ذلك أصرت على شرائه، بل وأحبته أكثر من أى ثوب آخر. تشعر بتوافق معه. فهى الأخرى لا منتمية إلى الألوان المألوفة..

وفى لحظات كانت مستعدة للخروج. فهى لا تضع المساحيق ولا تنظر فى المرآة. شىء واحد يستطيع الابقاء عليها وقتاً أطول. تتذكر عادتها القديمة قبل النزول. لا تغادر البيت أبداً الا بعد أن تتأكد أن كل شىء فى مكانه. تحب أن تعود من سهرتها إلى القراءة، أو النوم على أنغام موسيقى هادئة. إما أن تعود لترتب أشياء فى البيت، فهى فكرة مزعجة، وقادرة على أن تعكر صفو سهرتها. شىء آخر أقوى وأعمق كان يجعلها تشعر أن كل مرة نزول، ربما تكون الأخيرة بلا عودة. فان حدث هذا، يجب أن تترك كل شىء منظماً ومرتباً. ليس فقط ليرتاح مَنْ يأتى بعدها، وليس فقط تقديراً للأشياء التى رافقت حياتها. لكنها كانت مدركة للفوضى داخلها التى تجد عزاءها فى نظام خارج عنها.

تزيل الغبار المتراكم على السيارة الصغيرة ذات اللون البنى الداكن، كلون عينيها. تلقى نظرة سريعة على العجلات الأربع، وتندفع داخل السيارة، كأنها على موعد.

تسير فى طرق عديدة. تستعين ببعض الأنغام لتكسر الهدوء الذى يصيب الدنيا مع اقتراب الشتاء. تندهش لأن الناس لا يخرجون الا فى الصيف، حيث العرق، والزحام، والضجيج.

السماء تمطر. تمطر الآن بشدة. ويبدو أن سيارتها الصغيرة لم تكن محكمة بالقدر الكافى، لأنها ابتلت. شعرت بحيوية أكثر، فتساءلت بعد ساعة من النزول: إلى أين أنا ذاهبة؟ ولِمَنْ؟ تستعيد فى خاطرها كل الأماكن.. تتذكر كل الناس. ولكن لا مكان، ولا أحد يفسح صدره، لإمرأة وحيدة فى عمر السبعين، لا تريد انتظار الموت. تريد السهر، تريد مشاركة.. تريد الحياة. تقولين يا صديقتى أنه مجتمع لا يعترف إلا بالصغيرات الجميلات، ولكن اسمحى لى أن أضيف شيئاً: «الصغيرات الجميلات غير الوحيدات»

ما زلت أذكر وأنا فى عمر العشرين، كيف كنت محاصرة بالعيون والنظرات وتعليقات الغزل، وأحياناً بلمس الأيادى بمجرد اننى وحيدة فى الطريق، وفى الحياة. وإذا حدث صدفة، ورافقنى رجل زميل أو صديق، أشعر بفرق هائل، فإذا بكل الأصوات تخرس، وبكل الأيادى تعود إلى أصحابها.

والآن وأنا فى السبعين من عمرى ما زلت محاصرة. لكنه حصار مختلف. لم أعد اسمع عبارات الغزل، اختفت مع ظهور شيخوختى، وحلت بدلاً منها عبارات السخرية، وأحياناً عبارات السباب التى تهـزأ من ملامحى ذات التجاعيد، ورأسى الأبيض المصر على أن يطل على الحياة.

وبرغم تلك الوحدة المصاحبة لها منذ طفولتها فانها لم تتمن حماية رجل ولم تصبغ شعرها، وتشد جلدها. ألم يكن هذا جزءاً من التحدى الذى رقصت له؟

السيارة الصغيرة، ذات اللون البنى، تعود من الطريق نفسه. دون أن تنزل منها صاحبتها. كانت تقود وهى شاردة. تتذكر مئات المرات التى تركت فيها البيت بنفس منشرحة، تشعر بقوة الدنيا بداخلها، وعادت دون أن تنزل من سيارتها، بنفس مكتئبة عاجزة. ماذا تفعل؟ تذكرت مثلاً يقول: اضحك تضحك لك الدنيا» كم هو كاذب! فها هى تتدفق حيوية، وحباً للحياة، ولكن الدنيا لا ترحب بتدفقها. ما فائدة اقبالها على الحياة، والحياة نفسها ترفضها؟ ما فائدة حبها للحياة، والحياة لا تعدها من الأحياء؟ كادت أن تتجاوز اشارة حمراء، ولكنها تنبهت فى أخر لحظة. تشتاق للحب، والرقص، والمناقشات، والهواء المنعش بصحبة الاصدقاء. تشتاق أكثر من أى وقت مضى.

السيارة تقترب من طريق الأشجار المؤدى إلى بيتها. برغم البرودة شعرت بعرق غزير يتساقط.. برغم الهواء شعرت بأنها تختنق. الأفكار المتزاحمة فى خاطرها.. رغباتها المكبوتة.. الوحدة المفروضة عليها.. برودة البيت المنتظرة وصولها.. ذكرياتها التى تلح عليها. التذكر الذى يلح على النسيان. الماضى الطويل الذى نسيه الجميع.. المستقبل الذى تود أن تعيشه، ولا يود هو مصاحبتها.. الحبيب الغائب دائماً عن اكتمال مشاعرها.. أمها

الراحلة التى تشبهها. كلها أشياء تراكمت فى لحظة أمامها، لتحجب الرؤية عن عينيها. وإذا بصدمة قوية تتوقف معها السيارة الصغيرة. سيارة أخرى توقفت. نزل منها رجل ذو شعر أبيض، وقد زاده الارتباك شيخوخة، فبدا مخيفاً. تقدم مسرعاً اليها.. اقترب منها وأخرجها من السيارة المهشمة. أنفاس بطيئة، آتية من بعيد، لا تزال تنبعث من داخلها. نظرت اليه، نظرت حولها وسألته، وهى تركز بعينيها على الشعر الأبيض: «كم الساعة الآن؟»

قال وهو ينظر إلى الساعة البعيدة المضيئة فى أخر طريق الأشجار:

«دقائق وتصبح الحادية عشرة»

تذكرت صديقتها الوحيدة المنتظرة الموت، تذكرت المنزل المرتب. تذكرت شيئاً لن يتذكر بعد الآن. تنهدت. همست بكلمة لم تسمعها إلا قطرات المطر التى امتزجت معها، وأغمضت عينيها، مع اكتمال الدقة الحادية عشرة الأخيرة.

للفـــن أغنيـــة

الأشياء كلها فى متناول يدى .

عندى رصيد كبير فى البنك .. عندى مسكن خاص يطل على النيل .. عندى ملابس تكفينى لمدة عام .. عندى سيارة « روسى » بالكماليات .. عندى جهاز « أمريكى » ــ ما زال يدهشنى ــ يسجل المكالمات التليفونية حينما أغيب عن البيت . والمنبه الـ« سويسرى » يوقظنى من النوم بموسيقى تحبب فى النوم . عندى بن « برازيلى » تزداد حلاوته مع تكرار التذوق .. ورائحة الشاى الـ« هندى » تنادينى تمام السابعة مساء كل يوم .

عندى فتاة ، هادئة من النوبة ، تأتــى صباح كل يوم للتنظيف وإعداد الغذاء . وكم ترهقنى . جسدى يتعب حين أخدم نفسى ، وتتعب نفسى حين يخدمنى آخرون . بعد كل مرة تنحنى بشرتها السمراء لتخدمنــى أقرر ألا أبقيها وفى اليوم التالى يفاجئنى بقاؤها بإنحناءات جديدة ، أشد سمرة .

مكتبتى تتسع لقراءات العمر . وطموحاتى لا يتحملها العمر . عندى لغة وفلسفة للتغيير ..

أسافر إلى الخارج كثيراً، أسافر إلى الداخل أكثر.

أرقص كلما طلب جسمي وأدخن نوع سجائري المفضل.

أجيد لعب التنس ولعب البيانو والسباحة. وأجيد مصادقة الشجر.

حولي مؤامرة محكمة، لتحويلي إلى إنسانة تأكل وتشرب وتعرق وتتكاثر فقط.. مصرة على ألا أكونها. ويناسبني التحدي.

أسرتي لا تزال على قيد الحياة. ولم تكن أبداً قيداً على حريتي. تعجبني أسرتي وتلائمني تماماً.

« أم »، ماذا أقول عنها وكيف أصفها. لم أحاول قبل اليوم، وصف أمي في كلمات أكتبها. ياله من أمر بالغ الصعوبة. حقاً عندما تكون هناك أشياء كثيرة تقال، ينتهي الأمر بقول لا شيء.. بعمق الكلام يتحدد عمق الصمت... أحياناً.

هـل يكفي أن أقول أن الله ربي في السماء، وهي رب لي على الأرض؟ ولا أعني بكونها ربا لي، أنني في حالة من العبادة العمياء أو التبعية أو الخوف. لكنه الإحساس بأنها معي، في كل خطوة وكل لحظة وكل موقف. تلازمني كالهـواء أو اللغة أو آشعة الشمس. ومنذ وعيت وهي تمارس شكلاً خاصاً جداً من الأمومة، بعيداً عن المطبخ وتغيير الملابس المتسخة والقبلات ذات الحنان الساذج الموروث. ومنذ وعيت، وهي

تنحت فى الصخر. فى كل مرحلة من العمر، يتغير لون الصخور وشدة تماسكها، لكن دائماً هناك معركة ودائماً تخرج فائزة.

« أخ »، ما كنت أختار غيره ليعيش معى. دون تدخل، دائم التفوق فى الدراسة.. تخصص فى الهندسة.. يكتب القصة، يعزف « الجيتار» يهوى الاخراج السينمائى. عيناه لهما بريق أسود غريب لا أفهمه.. رقيق. ورغم التسع سنوات التى تفصل بيننا، إلا أنه صديقى الحميم الوحيد الذى تتساوى قامتى بقامته.

« أب »، أعيش معه ولا أحمل اسمه، لكننى أحمل حرصه الشديد على الدقة والنظام وأحمل أفقه المتسع لكل الأشياء. الرجل الوحيد الذى عرفته يستطيع تحمل امرأة حرة.

و« أب » أحمل اسمه ولا أعيش معه، لكننى أعيش مع كرمه النادر فى زمن بخيل. أعيش مع أحلامه، تعجلت الرحيل وتركته وحيداً مع قناعة أحسده عليها.

كل منهما يعطينى جانباً من فلسفة الحياة، وجانباً من شكل الأبوة.

ألست محظوظة؟ بهذه الأسرة. فُصلت تماماً علىّ.

وأعيش ــ كما تقول شهادة الميلاد ــ مطلع الشباب.

لست غبية أو ساذجة. لست متعجرفة ولست كاذبة. لا تقتلنى الغيرة من نجاح الآخرين والأخريات.. لا أتكلم مع أحد.. لا أتكلم على أحد.

كل هذه الأشياء، فى حياتى، شىء بالتأكيد جميل. والأجمل أننى لم ألهث وراءها..

وتوقعت ــ كما توقع كل مَنْ حولى ــ أن أكون فى منتهى الرضاء. لكننى لا أرضى؟ فالحقيقة، أننى دائمة الشكوى.

أفرح.. نعم، ولكنه أبداً لم يكن الفرح الذى يشبع احتياجى للفرح.. وحزنت، حزناً لم يشبع رغبتى فى الحزن.

لى أصدقاء، لا يرضون أبداً حنينى للصحبة والبوح بالأسرار. لم أتناول وجبة وملأتنى شهية.. لم أشرب كأساً وارتويت. فى قراءاتى، لم أهتد إلى كتاب أوقف ولعى بالمعرفة. حتى فى الكتابة، لا أتذكر سطوراً أراحت ــ ولو حيناً ــ نهمى إلى الخلق. كثيرة الشرود فى اللا شىء.. أقلق بلا داع.. أفقد هدوءى سريعاً وبلا منطق. دائمة الإشتياق إلى الكلمة التى لا تقال، دائمة الإنتظار إلى لحظة قناعة أتنهد فيها بإرتياح.

تساءلت ما الذى ــ مع تنوع حياتى ورفاهيتها ــ يفسد رفاهيتى؟ ما الذى يقاوم اكتمال أى متعة تحاول امتاعى؟ ما ذلك الشىء غير الموجود، يمحو وجود كل الموجودات فى حياتى؟ وكدت أجن.

وأخضعت نفسى الحائرة للإستشارة.

وكانت دهشتى أكبر من حيرتى، حين أجمع الناس ــ رغم اختلافهم ــ على أن الذى يفسد رفاهيتى.. يقاوم إكتمال أى متعة

تحاول امتاعى.. الغائب الذى يمحو وجود كل الموجودات، فقط ثلاث حروف تجتمع بشكل ما لتصنع فى اللغة كلمة «رَجُل».

بالتحديد وبدقة، ينقصنى الحب.

بالتحديد وبدقة ينقصنى دوار القبلة، دفء اللمسة.. سحر كلمة العشق.. لهفة الإنتظار.. رعشة التوحد ومذاق الحنان فى زمن قاسى.

بالتحديد وبدقة، ينقصنى أن أفقد الوعى بعضاً من الوقت، وأستسلم مغمضة العينين ـ كما يحدث للنساء فى الأفلام ـ إلى غيبوبة تصدر لى رخصة رسـمية، تثبت أن أنوثتى تصلح للربع الأخير من القرن العشرين.

«فتشى عن الرجل»، هذا هو العلاج.. هذا هو دواؤك هكذا كانت الروشتة.

لكن من أين لى بهذا الدواء؟ كيف أبحث عنه؟ ما قدر الجرعة التى أحتاجها؟ لم يقل لى أحد.

ما هذه الأسئلة؟ أبدو كأننى وافقت على التشخيص، ولم يبق فى الأمر، إلا الحصول على الدواء.

لا بد أن أتساءل فى البداية هل هم محقون؟ وإلى أى مدى؟ دائماً أستمع إلى نفسى فقط، ورأى الناس لا يتعدى العلم بالشيء. هذه المرة أنا حائرة.

قلت: ما الذى سيحدث إذا عملت بالنصيحة هذه المرة.
لا أحد يملك وحده وطول الوقت، الحقيقة كلها. فلأجرب الأمر.

واكتشفت ــ بعد القرار ــ المأزق.

اكتشفت أن الدواء الموصوف موجود فعلاً فى الأسواق، وبوفرة. لكنه ممنوع من الصرف إلا فى حالتين. أبيع أخلاقى لأصبح عاهرة، أو أبيع حريتى لأصبح زوجة. إما أن أكون ــ دون علم أحد ــ لكل الرجال. أو أكون ــ بعلم كل الناس ــ لرجل واحد.

مـاذا أفعـــل ؟

أنا لا أريد أن أكون عاهرة، ولا أريد أن أكون زوجة. أريد أخلاقى وأريد حريتى معاً.

مـاذا أفعل ؟

لم أهتد إلى شىء. وهكذا لم أصرف الروشتة.

شكوتى مستمرة.. عدم رضائى مستمر.

وإلى متى ؟

أحتاج جداً صحتى ولم أفقد رغبتى فى الحياة.. والجميع حولى يدفعوننى إلى صرف الروشتة.

وقـــــررت.

قررت شراء الثلاث حروف التى تجتمع بشكل ما لتصنع فى اللغة كلمة « رَجُل » ، مقابل بيع حريتى .

أعرف أن الصفقة غير عادلة .. أعرف معنى ما أقدم عليه .. أعرف قدر المخاطرة .. وغير مصدقة أن امرأة مثلى ، علاجها « رَجُل » . لكننى أريد صحتى وفى الحفاظ على الصحة ــ كما فى الحرب أو الحب ــ كل شىء مباح ، حتى لو كان الزواج . وليكن عزائى أن نفسى ــ مرجعى المألوف ــ تقف متفرجة ، وترفض مساعدتى . هكذا بررت الأمر .

وكنت على موعد مع مأزق آخر .

فمَنْ أتزوج ؟ مَنْ أعرفهم متزوجون أو لا يصلحون للزواج .

مَنْ أتزوج ؟

قالوا : ارسلى إلى المجلات باب « أريد عريساً » مع بياناتك الشخصية ومؤهلاتك وشكل قوامك . ولا تنسى توضيح هل أنت محجبة أم سافرة . وهل سبق لك الزواج أم أنك عذراء . وما قدر ممتلكاتك .

مَنْ أتزوج ؟

قالوا : استعينى بخاطبة .

مَنْ أتزوج ؟

قالوا : ابحثى فى دفاترك القديمة .

وبحثت. وجدت صديقاً سألنى الزوج منذ عامين. لكننى لا أحبه.. أحب حبه الذى لا يفتر. كلما رأيته مصادفة أجده محتفظاً بدعوة مفتوحة ورغبة حاضرة فى الابقاء علىّ وقت أطول ولو دقيقة أخرى. يفاجئنى بمتابعة كتاباتى ــ السبب الوحيد الذى يمكنه فعلاً من الابقاء علىّ وقتاً أطول.

أحضرت رقم هاتفه.

جاءنى صوته دائم الترحيب بصوتى.. دائم الإشتياق لصورتى.

طلبت مقابلته.

جاءنى دون أسئلة.. دون دهشة. أعطانى احساس أنه أنتظر طويلاً مكالمتى.. وأن لقاءنا طبيعى وضرورى لا يثير السؤال أو الدهشة.

لم أتردد.. لم أستعن بمقدمات.. فأنا متعجلة الشفاء. كما أن حبه المتدفق ــ دون أسباب أفهمها ــ جعلت الأمر سهلاً، مطمئناً.

سألته: «هل ما زلت تريد الاقتران بى؟»

قال: «لم تتغير رغبتى لحظة واحدة ولن يحدث هذا أبداً. أنتِ التى رفضتِ وبحدة»

قلت: «أنا موافقة»

سألنى: «متى؟»

قلت: «الأسبوع القادم.. يوم الأحد»

نهض مسرعاً وهو يقول : « سأبدأ فوراً فى اعداد كل شىء ، لا تقلقى ، سأجهز الدنيا كلها قبل الأحد القادم »

تأملته وهو يمد فى خطواته . ترى ما الذى يخبئه لى القدر بين هذه الخطوات المتعجلة ؟

كأن أخرى غيرى تتزوج .

فى حفل الزفاف ، مُعد كأنه ليلة من ألف ليلة وليلة ، أجلس على مقعد اعتقدت أن نوعه قد انقرض منذ زمن ، أتفرج على نفسى الداخلة فى فستان طويل ضيق ، أصفر اللون . أتفرج عليها ، أكثر مما أتفرج على الناس وفخامة المكان . لا أصدق أننى أنا التى ينادونها « العروس » .

سألنى العريس : « فيم تشردين ؟ »

قلت : « لم أكن أعرف أنك بهذا الثراء »

قال : « لم تعرفى أننى بهذا الحب »

فى الحفل ، حضر كل أصحاب « الروشتة » . وظلت نظراتهم المبتسمة لطاعتى ، تلاحقنى حتى اختفيت أنا و« الدواء » عن الأنظار ، فى سيارة مزينة بالورود ، مصاحبة بزغاريد وكلمات تتمنى السعادة والبركة ...

ودخلت بيت الزوجية .

كل شىء فيه ــ كصاحبه ــ يرحب بوجودى .

دخلت مترقبة لحظة بدء العلاج .

الآن ، وحدنا فى غرفة النوم ذات اللون الأزرق المشابه للون عينيه .

ها هو يختصر المسافة إلى جسدى العليل . وها أنا أعمل بالنصيحة وأستسلم مغمضة العينين ـــ كما تفعل النساء فى الأفلام ـــ للثلاث كلمات التى تجتمع بشكل ما ، لتصنع فى اللغة كلمة « رَجُل »

مرت الليلة الأولى والليلة الثانية والسابعة والمائة . تحول إسمى من « الأستاذة » حاملة شهادة الماچيستير إلى « مدام » حاملة شهادة رسمية تثبت صلاحية الأنوثة ، لعالم الربع الأخير من القرن العشرين .. وبدلاً من إعدادها « للدكتوراه » ، تعد الطعام تمام الثالثة لشخصين .

مرت الليلة الأولى والليلة الثانية والسابعة والمائة . جربت ما كان ينقصنى . عرفت القبلة واللمسة .. سمعت كلمة العشق .. انتظرت بلهفة .. ذقت النشوة واستقبلت الحنان فى زمن قاسى .

بالتحديد وبدقة صرفت « الروشتة » الموصوفة . لكننى ما زلت أحس أعراض المرض . ممتلئة بالشكوى وعدم الرضاء . ربما أكثر من قبل . أحاول الكتمان ، أقاوم الإحباط الذى أصابنى .. والزيف يتعبنى ويزيد من حيرتى .

ألست امرأة بالقدر الكافى ؟

ألست مثل نساء الأفلام تكفيهن قبلة .. تشبعهن لمسة ، وترضيهن كلمة ، فيعلن النهاية السعيدة ؟

هل أنا محصنة ضد إختراق أى غرباء ، حتى ولو على « سنة الله ورسوله » ؟ هل عندى مناعة لا تلين ، تفسد مفعول أقوى دواء ؟

أم أن مرضى وراثى ، مزمن ولا سبيل إلى الشفاء منه ؟

هل العيب فى « الدواء ؟ » .

أيكون مغشوشاً ؟ مخففاً ؟ ملوثاً بإشعاعات ؟ فات تاريخ صلاحيته ؟ أيكون غير ملائم لطبيعة جسمى ؟ أم أننى أهملت تعاطى الروشتة .

ربما لم أواظب عليه بالقدر الكافى .. ربما تناولت من الطعام والشراب ما يعادل مفعول الدواء .. أو ربما كان نمط حياتى كله ، لا يتناسب والروشتة الموصوفة .

يقولون أن تهيئة الحالة النفسية ، مهمة فى أى علاج . ترى هل قصرت فى تهيئة استقبالى للدواء ؟

عدت بذاكرتى ، إلى كل ليلة صرفت فيها « الروشتة » ، لأتأكد من الأمر.

وأدهشتنى استعادة التفاصيل .

أدهشتنى إلى حد الذعر. فكل ليلة دواء ، أمارس وجود إمرأتين . الأولى ، مهيئة نفسياً تماماً ، أو هكذا تبدو. مستغرقة فى

طقوس تعاطى الدواء، لا تريد انتهاء الجرعة. امرأة مقبلة على الحياة، تتدفق عشقاً وقدرة على تجاوز الأشياء.

تنتهى الجرعة وتبدأ امرأة أخرى فى الوجود. امرأة تتدفق برودا، مللاً، تشاؤماً، تتساءل خائفة لماذا تنتشى؟ من أجل ماذا؟ ومن أجل مَنْ؟

وتعود أعراض المرض أشد ما يكون. بل اننى لم أعهد نفسى شاكية وغير راضية، بهذا الشكل، إلا بعد استقرار الدواء فى أحشائى.

ويخيفنى الفاصل الزمنى.

ما هى إلا ثانية، تلك الفاصلة بين امرأة ذائبة فى النشوة. وأخرى ذائبة فى العبث.

وتمر الليالى على هذا الحال.

إلى أن حدثت ليلة، غيرت الحال. وأكدت أن بقاءه — حقاً — درب من المحال.

ليلة لن أنساها وأتمنى ألا تنسانى هى الأخرى.

أتذكرها جيداً، مساء السبت السابع والعشرين من الشهر السابع فى العام، والساعة تقترب من السابعة.

كان الدواء باطل المفعول، أقصد زوجى فى حفل خطوبة احدى الصديقات. كنت مدعوة معه، لكننى فضلت البقاء فى

البيت. لماذا بقيت؟ فلم أكن متعبة.. مزاجى فى حالة تسمح ببعض الإبتسامات وكلمات التهنئة. والأهم أننى كنت فى حاجة إلى شىء من التغيير. لكننى اكتفيت بإرسال باقة ورد تحمل اسمى.

كنت على موعد مع احساس غريب.

ليست هذه هى المرة الأولى، أختلى بنفسى وبالأشياء حولى. بل أننى لم أنتظم فى عادة، مثلما انتظمت فى الحرص على لحظات وحدتى. أؤجـل المواعيد.. ألغى الالتزامات.. أريح عقلى وأتهيأ لملاقاة نفسى.

الليلة ــدون مبررــ أشعر أنها المرة الأولى. والماء الساخن فوق جسدى، يتدفق سخياً بإحساس غير معتاد. هدوء جميل غير مفهوم، يشملنى.

أدخل حجرتى الخاصة، أغلق الباب، أغير الملاءات.. أستلقى على الفراش مغمضة العينين، فى محاولة لفهم سر هذا الهدوء الداخل لحياتى المرتبكة.

الفهم أحياناً، يقود إلى مزيد من المتعة، وأحيان أخرى يفسد طعم الأشياء.. لكننى كنت مستعدة للمخاطرة.

فتحت عينىّ.. فتحت الراديو الصغير الذى احتفظ به جانب الفراش. وأدهشنى الفعل. فأنا لا أفكر فى الراديو أبداً إلا الساعة الخامسة حين ينساب صوت «أم كلثوم». ولا أبقيه إلا دقائق

تشعرنى برائحة عشق قديم لم أعشه . وبعد منتصف الليل ، حين يصاحبنى « البرنامج الموسيقى » فى رحلة تأمل أو رحلة كتابة . صوت يقول : « تستمعون الآن إلى « أغنية الفن » تلحين « عبد الوهاب » تغنيها « ليلى مراد » .

وانساب لحن ساحر يشد من اللحظة الأولى . أحب ألحان « عبد الوهاب » .. احب الغناء وأحب صوت « ليلى مراد » ، وأحب الفن ، فكيف لم أعرف أنهم يجتمعون معاً فى أغنية ؟

استهمت إلى السحر .

وجدتنى أردد اللحن وأستجيب للكلمات ، كأننى أنا واضعة اللحن والمغنية وكاتبة الكلمات :

« الدنيا ليل والنجوم طالعة تنورها

نجوم تغير النجوم من حسن منظرها

ياللى بدعتوا الفنون

وف ايديكو أسرارها

دنيا الفنون دى خميلة

وانتوا أزهارها

والفن لحن القلوب

يلعب بأوتارها

والفن دنيا جميلة

وأنتوا أنوارها »

انتهى سحر الأغنية ، وبدأ سحر آخر داخلى . لا أعرف كيف أصفه . فكيف يصف الإنسان فى كلمات تستغرق مساحة من الوقت والتفكير والترتيب ، شيئاً لم يحدث بتفكير أو ترتيب ومساحته من الوقت ، لا وقت ؟ الكلمة — مهما كانت قصيرة — لها حد أدنى من الإستقرار ، وما حدث لى كان ومضة خاطفة . الكلمة — أياً كان جنونها — لها بعض المنطق ، وما حدث لى ، لا منطق له . كيف أصف بلغة معتادة عليها ، ما لست معتادة عليه ؟

أستطيع فقط وصف أثر تلك الومضة الخاطفة . خطفت حيرة حياتى . أحدثت تصالحاً مفاجئاً بينى وبين حياتى .. بينى وبين نفسى .. بينى وبين كل ما حولى .

فجأة ، الرؤية الغائبة توجد .. تتضح ، أجمل ما يكون الوجود والوضوح .

ومضة حلّت — فى ومضة — لغز ثلاثين عاماً ..

كانت قاسية .. لكنها القسوة التى تحدث لترحم ..

غريبة .. الغرابة التى تقود إلى الفهم ..

مدهشة .. الدهشة التى تصنع الحكمة ..

وكانت قصيرة .. عمر الأشياء الجميلة .

مضت الومضة وقد غيرت حياتى .

استعدت بابتسامة مَنْ يتذكر لهواً فى الطفولة ، أو ماضياً لم يعد يليق بالحاضر، تساؤلاتى :

«ما الذى ــمع تنوع ورفاهية حياتىــ يقاوم اكتمال المتعة ؟ ما الذى يجعلنى دائمة الشكوى وعدم الرضاء.. ما الذى يجعلنى أنتظر ما ليس يقال وما ليس يحدث ؟ »

يا لها من ضآلة كبيرة استدرجتنى.. ووصلت إلى قمتها حين أخضعت نفسى للاستشارة، وسعيت إلــى الدواء الموصوف . يا له من وهم كبير، جعلنى أفقد الثقة بنفسى وحياتى. وأفكر فى وقت ما ، أن امرأة مثلى، علاجها ثلاث حروف تجتمع بشكل ما ، لتصنع فى اللغة كلمة « رَجُل » .

ويا لها من سذاجة .

تعجلت معها فهم الأشياء، بإيقاعى أنا وليس بإيقاع الحياة التى أنجبتنى.

تعجلت الحقيقة ، فغرقت فى الزيف .

والآن ، جاءتنى الحقيقة فى التوقيت الذى يناسبها هى، فعرفت أنها ستبقى داخلى، وتصبح جزءاً مِنى.

وما أجملها من حقيقة .

ما أجمل أن أكتشف أن عدم الرضاء الدائم وعدم اكتمال المتعة وإستمرار الشكوى ، ملامح تميز شخصيتى، تماماً كلون البشرة والعيون وطول القامة وفصيلة الدم.

ما أجمل أن أكتشف أن عدم الرضاء الدائم وعدم إكتمال المتعة وإستمرار الشكوى، ضرورة من ضرورات كونى كاتبة. هى الحبر اللامنتهى يبعث الحركة فى القلم.

سألت نفسى ان كانت تريد التخلص من عدم الرضاء وعدم اكتمال المتعة وإستمرار الشكوى. وإذا بها ترد السؤال بآخر «هل سأكون أنا حينئذ أم سأكون أخرى؟».

لا.. لا أريد أن أكون إنسانة أخرى غيرى، مهما كان الثمن. أريد البقاء كما أنا، بقلقى وتوترى وعدم رضائى. وأريد البقاء كاتبة.

ترى إذا هدأت، ورضيت، هل سأظل أكتب؟ هل سأظل أكتب بالشكل ذاته؟

الإجابة، كانت تلك الومضة الخاطفة.

قادتنى الومضة الخاطفة ـ لا أعرف كيف حتى هذه اللحظة ـ إلى حب القلق وعدم الرضاء.

عرفت الليلة، أن لى نوعان من الدم، فصيلة الدم (أ) وفصيلة «عدم الرضاء».

رضيت بعدم الرضاء.

ثم فكرت فى ذلك «الرَجُل» الذى زوجته نفسى وأنا تحت تأثير الوهم.

مشتاقة إلى نمط حياتى القديم، بعد اكتشاف الليلة.

مشتاقة إلى الاستمتاع بتنوع ورفاهية حياتى، قبل العلاج الخطأ.

مشتاقة إلى ممارسة «نفسى» بعد تعرفى على بقية ملامحها.

مشتاقة إلى التعامل مع القلق وعدم الرضاء والشكوى، بشكل جديد.

أعرف أنه انسان متحضر، له أفقه المتسع وأنه سيفهم وسيقدر إنفصالى عنه.

وأعرف أننى سأستعيد لقب «الأستاذة» وأقذف بعيداً لقب «مدام».

لكن الأجل، أننى عرفت أن الأمر، ليس ثلاثة حروف تجتمع بشكل ما لتصنع فى اللغة كلمة «رَجُل»،

وإنما حرفان يجتمعان بشكل ما، ليصنعانه فى اللغة كلمة «فـن».

فرحتـــــى

الليـلة ....

يحتفل دمى بمرور خمسة أعوام على بدء النزيف .

الليـلة ....

تحتفل حياتى بمرور خمسة أعوام على نجاحها فى الحياة ، بالأكل والشرب والنوم والذهاب إلى العمل ، دون أدنى محاولة للتمرد .. دون أدنى محاولة للانتحار.

الليـلة ....

أحتفل بمرور خمسة أعوام على بقائى ضمن طائفة « النساء ذوات الكرامة » .

الليـلة ....

أحتفل بمرور خمسة أعوام على دخولى قائمة « النساء الحزينات » دون ارتداء السواد .. دون عزاء .

الليلة ، وآه من الليلة !

أنا كما أنا .. ولست كما أنا .

الدنيا كما هى .. وليست كما هى .

أين حدود التغير وحدود الثبات منذ خمسة أعوام فى الدنيا وفىّ ؟

الليلة ....

الذكرى السنوية الخامسة ، لتجسد عبث الحياة .. الحقيقة الوحيدة فى حياتى وفى الحياة .

الليلة ....

الذكرى السنوية الخامسة ، لفقدانى مناعة الجسم ضد أتفه الأجسام الغريبة .

الليلة ....

الذكرى السنوية الخامسة ، لاكتسابى مناعة الروح ضد أقوى الأفراح .

الليلة ، وآه من الليلة ..

الذكرى السنوية الخامسة ، لفقدانى ذاكرتى الحقيقية ، واكتسابى أخرى لم تصبح بعد جزءاً منى .

« الزمن خير دواء » .. « النسيان الوجه الآخر للإنسان »
« الإنسان حيوان ينسى » .
لست انسانة فيما يبدو .

فرور الزمن يقوى ذاكرتى .. تتابع الأيام يضاعف النزيف .

الأمس أهون من اليوم .. اليوم أقل قسوة من الغد.

لم تكن الذكرى السنوية الأولى، بهذه المرارة المكثفة .. لم تكن الذكرى السنوية الثانية، بهذه الحدة. لم أكن فى الذكرى السنوية الثالثة، مع هذه المواجهة غير المحتملة لحالتى .. ولم تعذبنى الذكرى السنوية الرابعة كما أتعذب الآن. ويا خوفى من الذكرى السنوية السادسة !

الليلة ....

أعترف بانهيار مقاومتى.

الليلة ....

سأقدم على ما حرمته على نفسى منذ خمسة أعوام.

سأدخل بإرادتى طائفة «النساء معدومات الكرامة».

أودع قائمة «النساء الحزينات» دون ارتداء السواد، دون عزاء.

الليلة ....

أيها العالم — الممتلىء بالخطايا، من الأزل وحتى الأبد — أهفو بكامل قواى العقلية الباقية، إلى الخطيئة، ليلة واحدة وحيدة.

الليلة ....

لن أفكر. لن أتردد .. لن أتأنى.

ما الذى سيحدث فى الكون، لو نقصت «النساء ذوات الكرامة» واحدة.. ليلة؟

ما الذى سيحدث فى الكون، لو زادت «النساء ذوات الخطيئة» واحدة.. ليلة؟

ما الذى سيحدث فى الكون، لو الليلة فرحت؟

تساؤلات سخيفة.. بلهاء، فمَنْ أصلاً يهتم؟

ثم مَنْ أنا؟ حياتى كلها، ليست سوى قطرة فى محيط دائم التجدد.. لا انتهاء له.

أيتوقف المحيط من أجل قطرة؟

وحرة أنا فى كرامتى وحزنى.. أحافظ عليهما متى شئت. ومتى أشاء أفقدهما.

وقد اخترت الليلة أن أكون بلا كرامة.. وأن أكون بلا حزن.

مَنْ ذا الذى يحاسبنى، وحياتى نجحت فى الحياة بالأكل والشرب والذهاب إلى العمل دون أدنى محاولة للتمرد؟ دون أدنى محاولة للانتحار؟

من ذا الذى يجرؤ على قهرى الليلة؟ أو محاكمتى؟ حتى أنت يا نفسى ــ قيدى الوحيد ــ لا حق لك. الليلة.. الليلة فقط، سأمتعك من مواصلة حساباتك العسيرة مع أنفاسى. الليلة، أعطى جلادك إجازة. منذ ثلاثين عاماً وهو يعمل ليل نهار. هذا ــ على

الأقل ــ ضد العدل الذى تطمحين إليه . أعْطيه الليلة أجازة ليدعو لك بطول البقاء . أعطيه الليلة أجازة ، ليقدر على المواصلة . أعطيه أجازة الليلة ، لأكون أوّل انسانة على كوكب الارض ، تتذوق طعم الحرية المطلقة . وأول إنسانة تتجاوز وجودها الأرضى ، إلى آخر محلق فى السماء .

ولم أصدق ما حدث .

لا أحس بشىء من الآلام اعتدتها ليل نهار. استعدت احساسى الغائب أن لى جسداً .. أشعر بقوة وحماس . وشفاء اشتقت إليه ، بسخاء يتدفق فى دمى .

فى هذه اللحظة ــ وبعد طول غياب ــ ، أستعيد نبضة قلب هاربة ، أميز جيداً إيقاعها . فى هذه اللحظة ــ وبعد طول غياب ــ أستعيد ملامحى تصنعنى دون غيرى . على يقين كامل ، أننى هذه اللحظة ، أستطيع الانتصار على العالم . فى هذه اللحظة ، أنا .. تماماً .. حقاً .. بشكل مطلق « أنا » .

اننى « أنا » يا للمعجزة .

أعيد ترتيب المكان .

لا يرضينى أى ترتيب .

أخذت أتأنق وأتزين .
ولا يرضينى أى تأنق أو تزين .

على الطريق ، أقود سيارتى دون انتباه . ولم الانتباه ؟ تعرف طريقها وحدها . كثيراً ما تمنيت الذهاب هناك ، دائماً أعكس

الاتجاه، فتتوقف دون عطل يبرر التوقف. سيارتى تشبه جسدى. اكتشاف مفاجىء ابتسم له.

ما أجمل بدايات الشتاء.

هواء يثير الحنين إلى أشياء لا تحن إلىّ، الطرق خالية.. الأضواء خافتة.

ما أجمل بدايات الشتاء.
ما أجمل أى بدايات؟

أرتعش رعشة لا أخطئها. عرفت أننى وصلت. آه من هذا المكان. من دون أمكنة الدنيا!

وجدت فيه دنياى. كم يبدو قريباً. كم يبدو بعيداً.

أنزل من السيارة أشعر بها تبارك خطواتى، المتوجهة إلى البيت. أصعد فى سهولة، السلم المظلم. أنفاسى منتظمة.. دقات القلب تعزف لحناً هادئاً.. تندهش نفسى لهذه الشجاعة المفاجئة، تتحدى عمر التردد والخوف الراقد خلفى.

تواجهنى الشقة. أقف لحظة.. الساعة التاسعة إلا سبع دقائق. أدعو حقوقى المجهضة إلى الحضور، وكل اختلاف لى عن البشر.. أدق بها القوانين والاعتبارات.. أدق الجرس.

عيناى مثبتتان على الباب.. وتركيز متوهج بعشق الحياة، ينتظر تغير الحياة.. ليلة.

وفجأة، تنساب نبرة صوت، فى دهشة غير مصدقة.. «أنت ؟!».

«أنا» أجيب.

لا أدرى كم مرّ من الوقت، والعيون ترسل لا نهائيات من الأشياء. لا أدرى كم مضى من العمر، هو بالداخل.. أنا بالخارج، لا يفصلنا سوى الباب الخشبى ويفصلنا العالم بأسره.

قال مرتبكاً: «تفضلى»

قلت: «أنتظرك فى سيارتى على جانب الطريق». أنزل السلم المظلم، تضيئنى عدة احتمالات تتأرجح بين الشك واليقين.

لم تلك السرعة؟ ربما لم يفهم؟ ربما أراد بعض الشرح؟ ربما لا يوافق؟ ربما لم يعد هو؟ ربما وربما. لكن شيئاً ما فى أعماق نفسى، كان يدعونى إلى الطمأنينة.

بعد عشر دقائق، أجده بجانبى فى السيارة، أجمل وأرق ما يكون الرجل فى بدايات الشتاء. أجمل وأرق مما عهدته.

الصمت بيننا يزيد من عذوبة الخريف.

«مندهش؟» لم أسأله وأنا فى غير حاجة إلى جواب؟

قال: «لست مندهشاً من مجيئك المفاجىء بعد خمسة أعوام. يدهشنى إحساسى أننا الليلة على موعد. بالأمس، جاءنى صوتك فى الحلم.. ومنذ الصباح وحتى مجيئك وأنتِ فى خيالى. تذكرت

عمرنا معاً. تفاصيل دقيقة بيننا ــ اعتقدت أننى نسيتها ــ تشبثت بذاكرتى. لماذا الليلة ؟

لماذا بقيت فى البيت ــ على غير عادتى ــ الليلة ؟ لماذا خرج الجميع ؟ لماذا صدق إحساسى ؟ لماذا استجبت إليك دون كلمة واحدة منكِ أو مِنّى ؟

صمت من نوع آخر، ينتقل بيننا. رائحته الغائبة خمسة أعوام، كما هى، لم تتغير. رائحة العشق المستحيل.. والقرب المحرم. كم أسكرتنى ! الآن، تعطرنى وتجعل الكلمات مهما صدقت ومهما عمقت، لا عمق لها ولا صدق فيها.

بين لحظة وأخرى، التفت إليه. آخذ حقاً سريعاً من حقوقى غير المفهومة.. غير المشروعة.

توقفت السيارة. تبارك خطواته بجانب خطواتى. مشينا دقيقة.. دخلنا المصعد. لم ننطق بكلمة.

يجلس فى استحياء، أجلس إلى جانبه. تحتوينا الأريكة الخشبية التى اشتريتها استجابة لرغبته. كم هى غريبة الدنيا ! كل ركن فى هذه الشقة، اخترناه معاً. كانت خالية كقلبى قبل أن نلتقى. به ومعه وله، امتلأ قلبى وامتلأت شقتى. وحين استلمت الشقة كاملة، ممتلئة بأثاث اختاره وألوان يحبها، فقدته.

يقاطع شرودى: «الشقة أجمل بكثير مما تخيلتها. ألديك مانع فى أن ألقى نظرة عليها بسرعة ؟».

قلت: «ولم بسرعة ؟ أمامنا كثير من الوقت» يتأمل كل جزء فى حنين، يتردد فى إعلان مبرره. يقترب من الخشب يتحسس ملمسه.

مرة أخرى تحتوينا الأريكة الخشبية.

«ماذا تريد أن تشرب ؟» أسأله.

يرد «أظن أنك تعرفين أم ... ؟».

أم ماذا.. ؟ أقاطعه سعيدة بالرد وأذهب لإعداد المشروب، حول رائحته التقينا أول مرة.

حتى هذا الطاقم من الفناجين البيضاء، كان اختياره.

نشرب فى صمت تغار منه الكلمات.

أخفت الأضواء.

سرى دفء المشروب فى دمى، فتكلمت «لا أصدق لقاءنا.. لا أصدق جلوسك بالقرب منى بعد العمر الطويل الماضى..»

يتنهد.. يركز جداً فى نظرة إلىّ ويهمس «العمر الطويل الماضى..» يسكت. يكمل «لماذا كل الذى حدث بيننا ؟ أنا وأنتِ ــ كما كنت تقولين دائماً ــ لم نخلق للقطيعة.. فلماذا عشناها خمسة أعوام متتالية ؟ لماذا والعمر قصير لا يحتمل ؟» أرد «أرجوك، دعنا الليلة من التساؤل.. دعنا من العتاب وإلا تحملت أنت النصيب الأكبر». وآخذ رشفة من المشروب كأننى أريد الاحتماء بدفئه.

مندهشاً يسألنى «كيف؟ حضورك الليلة دليل على أنك لم تنس.. استجابتى دليل على أننى لم أنس رغم كل شىء»

لمـــاذا....

لا أدعه يكمل: «مرة أخرى، أرجوك لا تتحدث عن الماضى. ما زلت أحمله بمرارته. حديثك عنه سيزيد المرارة.. لن يفيد كلامنا شيئاً.. لن أتغير ولن تتغير.. والدنيا بيننا لن تتغير»

يسأل بنبرة متحدية ولكنها رقيقة: «لماذا جئت اذن الليلة بعد خمسة أعوام من القطيعة المطلقة؟»

آخذ خطوة أقرب إليه وأجيبه: «بداخلى رغبة واحدة.. أريد أن أتأملك الليلة.. أتأملك دون كلام.. أتأملك دون عتاب.. أتأملك دون شرح.. تركت على ملامحك فرحتى وأريد استردادها»

«الليلة فقط؟»

أقول «سآخذ جرعة تكفينى خمسة أعوام قادمة أخرى»

يصمت.. أصمت.

أقترب منه أكثر على الأريكة الخشبية، وأقول «لا ترفض مساعدتى.. أحتاج فرحتى. جربت بعدك كل أنواع الحياة.. المريحة، الناجحة.. المتطورة.. المتميزة.. المتنوعة.. لكننى أبداً لم أذق طعم الحياة الفرحة. دعنى الليلة.. الليلة فقط أفرح بك، لأعيش بدونك»

يسكت بعض الوقت ولا أحاول إزعاجه . ثم يعتدل فى جلسته ويقول مبتسماً : « تفاجئيننى دائماً بالأشياء الصعبة والغريبة . موافق ولكننى أسألك ، بداخلك ، الإنسانة .. الفنانة .. العاشقة .. المرأة .. الناضجة .. والطفلة .. ترى بأى شخصية تتأملين ؟ وكيف ؟ »

أبتسم لجمال السؤال وأقول : « أريد التأمل بكل شخصياتى . لكن هذا يتوقف على قدرة ملامحك على التحمل . أما كيف ؟ فلا أعرف بعد . دعنى حرة مع ملامحك .. لا تقيدنى سأكتشف وأنا أتأمل »

« بكل شخصياتك ولا تعرفين كيف ؟ ليل الشتاء الطويل » يختم كلامه .

أدخل إلى عينيه .

كل ليلة قبيل الفجر



صوت الألم المنبعث من جسدها الهزيل، يبعثر أجزائى فى الحجرة المجاورة. الأشياء تهتز فى حركة عصبية، تحاول استدراجى إلى حجرة نومها.

كانت الثورة فى أعماقها، موقفاً أو كلمة وليست نبرات حادة على طرف اللسان. لكن اليوم ــ رغماً عنها ــ يرتفع صوتها.

أحاول أن أتماسك.. أحاول إعادة الأشياء إلى مكانها، لكن صوتها المتألم يحبط كل محاولاتى، فأرتمى على المقعد المواجه لحجرتها متعبة من الفشل.

بعد أن أغلق باب حجرة النوم، نظر إلىّ صديقى الطبيب نظرة عرفت معناها. أجاب بعينيه ــ فى لحظة ــ ما ظل عدة أشهر يؤرقنى ويتأرجح بين الشك واليقين. لم أعرف من عينيه إلا الصدق.. هذه المرة أتمناه كاذباً.

كان رغم صغر سنه طبيباً غير عادى. يشخص المرض كأنه هو صاحب الداء. دقة متناهية وفهم للألم والشكوى لا يتعجل الوقت أو المقابل. انسانيته تخجل مرضاه.. فلا يجدون مفراً من الشفاء!

دخل بيتنا، كصديق يحمل داخله ذكرى الطفولة وحلم الكبر، وتنطق بالحنين عيناه. وكطبيب يحمل حقيبة صغيرة تفوح منها رائحة الأدوية ويحمل عنى بعض القلق. تمنيت هذه المرة أن يكون مخطئاً.. تمنيت أن يتلاشى تاريخه من الدقة والفهم.. أن يسقط كطبيب لترسل عيناه معنى غير الذى أمامى الآن.

برقته المعتادة قال: «كنت أشك فى البداية، لكننى الآن متأكد. النظرة المتسائلة فى عينيكِ كانت ــ دون كلام ــ ترجونى ألا أتعجل قرارى. أشعر بكل ما تعانيه. كنت أتمنى أن يكون الأمر مجرد وعكة صحية شديدة لا تلبث أن تزول»

أحاول تجميع أجزائى وقبل اكتمالها أسأله: «ليس هناك أى أمل؟» يحتضن رعشة يدى ويقول: «مع الأسف. التسلل إلى الجسد يزيد كل يوم، ليس أمامنا إلا محاولة التخفيف من الألم.. وهذا أيضاً غير مؤكد دائماً، أحياناً يكون الألم أقوى من كل تدخل»

بنبرة تحاول تجاوز الموقف الصامت، يقول: «أنت بحاجة الآن ــ أكثر من أى وقت مضى ــ إلى قوتك. لو كانت أخرى غيرك لترددت كثيراً قبل مصارحتها بهذا الشكل.. هل تفهميننى؟ الأمر كله مسألة وقت». ورحل دون أن أعطيه رداً أو تحية وداع.

أقترب من حجرة النوم.. أفتح الباب برفق.. أقف أتأملها.. هالة الشعر الأبيض تضىء وجهها.. فى عينيها البريق المتحدى

يحاول امتصاص الألم.. وجسدها المنهك محاصر بعلب وزجاجات أدوية مختلفة الأحجام والألوان والمفعول.

الألم أقوى من تاريخ التحدى الطويل.. أفلت من تحكمها ليعلن بقسوة عن قدرة فائقة فى تعذيب الإنسانة الوحيدة التى عاشت تبعد عنى العذاب.

تلتفت حولها، تنظر إلى الصيدلية الصغيرة التى تحاصرها.. تنظر إلىّ فى توسل.. تريد قرصاً يريحها.. تريد قرصين، تريد كل أقراص العالم.

يا لها من مفارقة!. هذه المرأة المحاصرة بالأدوية الآن، عاشت عمرها تكره الأدوية..

كم يعذبنى أن تنهى حياتها محاصرة بما عاشت تكره. أدخل حجرتى القريبة من حجرتها. بهدوء أتحرك حتى لا أزعج تلك اللحظات القليلة التى يرحل فيها الألم.. أرتمى على فراشى أحاول أن أستريح. وكيف أستريح؟ وبعد دقائق معدودة يأتى الميعاد.. كل يوم فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، القريبة من الفجر، يرتفع صوتها بألم ليس فى جسدى لكنه يبعثر أجزائى. كيف أستريح؟ وأنا ما زلت أذكر المشهد المتكرر كل يوم قرب الفجر.. عرق ساخن مرتعش يغرقها.. يداها تتشبثان بالسرير.. تضغط بشدة على أسنانها.. تتقلب على جنبيها.. تتقلص ملامحها بآهات متوسلة فتبدو انسانة غريبة عن ذاكرتى.. تصبح مخيفة وهى الضعيفة التى تطلب الأمان.

كل ليلة قرب الفجر تسألنى عيناها متى النهاية؟ لا أجيبها. أظل فى المكان نفسه بجانب السرير المرهق بتحركات جسد معذب.. أحتضن يدها الساخنة المرتعشة.. أزيل العرق ولا أزيل الألم، أو حتى السؤال المطل من عينيها. هذا الألم الآتى قرب الفجر لا ينفع معه حصار الأدوية حولها.. لا شىء ينفع معه إلا ساعات طويلة متصلة من الأنين والصرخات المتوسلة والعرق، والسؤال الذى لا يلقى أبدا جواباً. بعدها يرضى.. يهدأ.. ويرحل عن جسدها بعدأن ترك فيه غيبوبة وأشياء أخرى مجهولة.

متى النهاية؟ أتعذب كل ليلة قرب الفجر بسبب هاتين الكلمتين.. المرأة التى عاشت عمرها ترعانى، تحمينى وتبعدنى عن الألم، أقف الآن أمامها عاجزة عن فعل شىء يريحها.. فقط أراقب تألمها فى صمت.. يا للجحود!

لا بد أن يكون هناك شىء أفعله. لا أستطيع تحمل رؤيتها تتألم بهذه القسوة كل ليلة قرب الفجر.. ماذا أفعل؟ النهاية قريبة جداً كما يقول صديقى الطبيب.. لكن ألم ليلة واحدة طويل جداً.. ألم عمرها. بل ألم عمر أكبر من عمرها، تعيش آلامه دون أفراحه.

متى النهاية؟ متى؟

بعد يومين.. بعد ثلاثة.. هل يمكن أن أراها مرة أخرى تتألم بتلك القسوة المنتظمة فى المجىء كل ليلة قرب الفجر؟

لم يبق إلا وقت قليل وتأتى اللحظة المتكررة كل يوم .. دقائق ويقترب الفجر.. دقائق وتستيقظ مكونات الألم فى جسمها .. أقترب من حجرتها .. أفتح الباب .. هدوء مفقود منذ مرضها يسرى فى الحجرة ويرقد على ملامحها النائمة .. أجلس على المقعد المجاورلسريرها، أنتظر لحظة أن تفتح عينيها ككل ليلة تطلب الدواء .

أنظر فى ساعتى .. بعد ثلاث دقائق تحين اللحظة ..

الدقيقة الأولى تمر.. أرتعش .. أرتبك وأخاف .. تمر الدقيقة الثانية أزداد ارتباكاً. أتمنى ألا تأتى الدقيقة الثالثة وأتعجلها فى الوقت نفسه .. انتهت الدقائق الثلاث ولكنها ما زالت نائمة . لم يزل الألم غائباً. ترى ما الذى أخره عن تعذيبها الليلة ؟ ليست عادته .

جسمها الآن يتحرك .. المشهد اليومى، ها هو يستعد لأن يتكرر.. ولكننى لن أسمح له بالتكرار.

كوب الماء يرتعش فى يدى .. أكثر برودة منه أطرافى وأفكارى .. أفرغ فى الماء كل الجرعة الكافية لاثبات عدم جحودى . تحول لون الماء إلى اللون الأبيض، لون شعرها .. أقترب منها . فى حالة من اليقظة النائمة تنظر إلىّ فى هدوء .. تبتسم .. أرد ابتسامتها .. تحاول أن تأخذ منى الكوب . أصر على أن أسقيها بيدى .

كل رشفة كالطعنة فى كيانى.. حتى إذا انتهت منه كنت كمَنْ يلفظ أنفاسه الأخيرة.. تنظر إلىّ.. تنظر إلى السماء.. تمسك بيدى وتعود إلى النوم.

وقفت أمامها لحظة لا أدرى حقيقة الأمر.. لا أفهم انفعالاتى. منفصلة جداً عن الأمر وداخلة جداً فيه. أصلحت من وضع الغطاء عليها وانسحبت بهدوء إلى حجرتى.

الفجر يعلن عن نفسه. لم أشعر بخوف.. فلتأت أيها الفجر. فلن يأتى معك ألم يهد الكيان ويبعثر الأشياء.

أول فجر منذ ليال طويلة أرتاح، لأنك يا «أمى» لن تتألمى بعد الآن.

مشتاقة إلى التراب

معك حق يا «سارتر»، حين قلت فى واحدة من أجمل رواياتك «المصيبة أننا أحرار».

«المصيبة أننا أحرار»، كلمات ثلاث تحكم حولنا حصاراً، تصبح معه الشكوى من أمر مفروض، كذباً. والاستمرار دون وضع نهاية عاراً.

وآن لى أن أعترف.

أعترف أننى كاذبة .. أعترف أننى حاملة للعار. فما الذى يحول دون تخلصى من وضع كرهته .. مللته؟ ما الذى يضطرنى إلى تحمل ما لا أريد تحمله، ما لا أستطيع تحمله؟ ما الذى يدفعنى إلى الاستمرار فى غسل وجهى كل صباح، فى الكلام والأحلام ورؤية الناس؟ ما الذى يجبرنى على مواصلة الوجبات الثلاث، والاستسلام للميكرفونات، ومتابعة الأخبار عن سفك الدماء؟ ما الذى يبقينى دائرة فى دائرة لا مبرر لها من الخوف والترقب القلق؟ أى شىء فى العالم يحملنى يومياً على فعل تلك الحركة البغيضة، المزعجة البلهاء.. اسمها الابتسامة؟! ما الذى يزين لى البقاء متأرجحة فى ذلك الوجود المنتصف، الذى يسمونه

« إنسانى » ، لا أستطيع التحول إلى إلهة .. ولا أستطيع التحول إلى حيوان . وأنا ينفرنى كل شىء يقع فى المنتصف ؟

لا شى سوى أننى كاذبة وحاملة للعار .

« المصيبة أننا أحرار »

وأن لى أن أتحول .

الليلة سأصدق .. أغسل العار .. الليلة أنهى « الغثيان » . لم أرد شيئاً من قبل ، كما أريد الليلة أن أضع حداً لتعاقب الليل والنهار . لم أرد شيئاً من قبل ، كما أريد الليلة ، أن أعتزل « العيش » . لم أرد شيئاً من قبل ، كما أريد الليلة ، أن أتشرف بلقب « المرحومة » .

« المرحومة » ... كلمة كانت تصيبنى بالذعر . تذكرنى بغدر الزمان .. باختفاء مفاجىء لا يُفهم .. بالعبث المتناثر فى الهواء ولا نراه . تحضر إلى ذهنى طقوس مخيفة مبهمة تدفن الجسد خالى الروح . « المرحومة » فى الصباح مع فنجان القهوة ، أقرؤها بخطوط سوداء ، تصف إنسانة موجودة حتى البارحة . وأتخيل حشداً هائلاً من النساء يغرقن فى السواد والمرارة . ورجال فى ريب يتبادلون نظرات التنبؤ بمنْ عليه الدور غداً . ويستغرقنى التحول الغريب من لفظ « إنسان » إلى لفظ « جثة » . يحاصرنى خيال موحش عن كآبة المثوى الأخير .

وآن لى أن أرحم .

من حقى أبدية الراحة .. من حقى الرحمة .. من حقى الحرية . ما أجمل أن أصبح «المرحومة» .. بيدى ، لا بيد القدر.

لا أدرى على وجه التحديد ، ماذا حدث لى وماذا جرى فى حياتى ، حتى أصبح الموت جذاباً .. فاتناً . كالحبيب الأوحد ، صار آسراً فكرى .. مثيراً كل الحنين . بعد أن كان غدراً وغموضاً مخيفاً ، أصبح عدلاً وخطوة تحرر. بعد أن أرّق منامى وعكر استمتاعى بالتصاقه غير العادى بظلى وصداقته مع أنفاسى ، أصبح صحبة حميمة ، بدونها لا آنس أيامى . بعد أن كان طفلاً متطفلاً عابثاً ، فوضوياً ، صار كل الحكمة وخلاصة النضج .

حتى تخيلاتى عن أجواء المقابر، وطقوس الدفن ، تخلت شيئاً فشيئاً عن كآبتها ووحشتها . لا أدرى على وجه التحديد ، ماذا حدث لى وماذا جرى فى حياتى ، فأحببت المثوى الأخير الترابى . فى الحقيقة ، وقعت فى غرام التراب ، المثير من قبل ذعرى . أصبح التراب صديقى الوحيد . أحاوره .. أستمع إليه .. نتنزه معاً . بكل الرقة أنظر إليه .. وأحتويه . فإذا به أكثر رقة .. وأكثر كرماً ، ويعترف بأسرار لا يعرفها سواه .

ما عيب التراب ؟! وهو من الأزل وإلى الأبد ، يرحب بنا حين تملنا الدنيا . لا أدرى على وجه التحديد ، ماذا حدث لى وماذا جرى فى حياتى ، لأقرر أن كائنات المقابر ذات الأشكال المرعبة والأصوات الخشنة ولا أعرفها ، لن تكون أسوأ من البشر ، هى على الأقل ، تنتظر زوال الروح لتبدأ انتهاك الجسد . البشر خارج

المقابر، لا ينتظرون. لا أدرى ماذا حدث لى وماذا جرى فى حياتى، لأقرر فى ثقة نادرة الحدوث، أن حب الموت هو المفتاح السحرى المفقود للسعادة. وأن عشق التراب، هو العشق الوحيد ظللت عمرى سائحة، بين أنواع العشق، أبحث عنه.

الليلة، سأبرهن على أن عشقى أيها التراب، لك حقيقى. الليلة أودع الخوف. ماذا يخيف فى العودة إلى الأصل! حتى الحزن لا معنى له. فى لحظة ما، دخلت الحياة، لا أملك إلا جسداً عارياً. تقصر أو تطول استضافة الدنيا، وفى لحظة ما، أخرج. ولا شيء معى إلا الجسد العارى. عدل مطلق وحكمة خالدة.. سهلة ممتنعة. لكن الإنسان لا يفهم.

الليلة.. أستحضر الحكمة الخالدة.

على يقين، أننى لن أندم. فما أهمية يوم أكثر.. عام أكثر، أو عدة أعوام. أنــا ضيفة فى كل الأحوال ولا بد أن أعود إلى بيتى حيث أشيائى وأوراقى وذكرياتى!

وكم أتوق إلى بيتى! طالت ضيافتى.. تكاثر الضيوف.. زادت الضوضاء.. عمّ التلوث.

أتوق إلى بيتى.. فالدنيا لا تحسن استضافتى.. لا تميز بين ضيف وآخر.

أتوق إلى بيتى. المكان على اتساعه يضيق.. والمباهج على اختلافها تتشابه فى عدم البهجة.

أتوق إلى بيتى. أتحرر من الزى الرسمى.. والتعبيرات الرسمية والأحلام الرسمية.

أتوق إلى بيتى. أفتح كل النوافذ.. أسير حافية.. لا أمشط شعرى.. لا أمشط طباعى.

أتوق إلى بيتى. أنام على يقين تام، بأننى لست فى حاجة إلى حبة مهدئة.. لا يوجد منبه يفرض الاستيقاظ. نوم مطلق أهفو إليه، وأحسد مَنْ قبلى جرَّبَه.

الليلة، أجرِّبُه.

لم أقدم على الانتحار من قبل. على كل حال، سأكتشفه وأنا أمارسه. لا حرية عظيمة دون اكتشاف عظيم! وسأستمتع –كعادتى– بالاكتشاف. أهم شيء أن أجد طريقة تناسب شخصيتى. كما أبدعت حياتى، سأبدع موتى.

أريد إنجاز بعض الأشياء الهامة الضرورية قبل أن أنتحر. سأكتبها حتى لا أنسى. فالأمر لا يحتمل النسيان. ما هى تلك الأشياء الهامة الضرورية! كانت دهشتى إذ وجدتها، الأشياء نفسها أفعلها كل يوم، وكل ليلة. لا أهمية لها ولا ضرورة فيها، إلا لأننى أفعلها للمرة الأخيرة. بدت ذات بريق لم يظهر من قبل.. ركزت كل كيانى.. ولم أملها. على العكس، اكتسبت جاذبية تغرى بطول العمر. لكننى لن أُخدع.

لأننى سأموت الليلة وعلى يقين من ذلك، أشعر بمتعة لم أتذوقها من قبل.. وأحس باطمئنان بحثت عنه طول الحياة. لأننى سأموت الليلة وعلى يقين من ذلك، شملتنى مغفرة أنستنى سوء استضافة الدنيا.

لم يبق إلا الليلة.. الخلاص الليلة.. التحرر الليلة.. السعادة الليلة.. ما أحلى الليلة!

أخذت أرتب المكان. يجب أن أترك كل شىء مرتباً قبل انتحارى. حين جئت إلى الدنيا، لم يكن كل شىء مرتباً. لا بأس، لتكن هذه هدية الضيفة.

وبين تنقلاتى من ركن إلى آخر، تأتينى وجوه أهلى الذين رحلوا. ماتوا وتركونى قبل استنفاذ أغراض المعاشرة. ماتوا قبل أن يعوضهم العمر، عن تعب لا عمر له. ماتوا قبل أن أحب الموت.

اطمئنوا. قادمة إليكم الليلة! لا أعرف هل تجتمعون فى مكان واحد أم متفرقون!.. ولا أعرف العنوان. الليلة سآخذ الخطوة الأولى إلى المعرفة. الليلة، سأتشرف مثلكم بلقب «المرحومة».

اطمئنوا.. لا داعى للحسرة.. لا داعى للندم. فنذ موتكم، والأحياء لم يفعلوا شيئاً جديداً يستحق الحزن على انتهاء العمر.. أو يستحق أمنية إطالة العمر. لا شىء سوى الأكل والغرور والزيف ومشاهدة مباريات كرة القدم. لا شىء سوى التكاثر وانتظار الموت.

اطمئنوا، لا داعى للحسرة لا داعى للندم. فالفن الجميل ما زال محاصراً.. والحب دون أوراق رسمية، مجنون يبحثون له عن معزل.

وما زالت صفحات الجرائد، أبعديات تورث. اطمئنوا لا شيء جديد تحت الشمس. فقط خيبة الأمل... لا شيء جديد تحت الشمس، فقط تلك الحركة البغيضة المزعجة البلهاء، لا معنى لها اسمها الابتسامة.

اطمئنوا.. واسعدوا بالمثوى الأخير.. صدقونى، التراب أرقى.. أكثر خصوبة.. التراب أحنّ.

لا.. أنا لا أكذب.. ولا أبالغ ولا أغالط. ولا أقدم لكم عزاء. ولا تقولوا كما يقول عنى البلهاء، إننى لا أرى إلا نصف الكوب الفارغ.

أصبح كل شيء مرتباً الآن. كل شيء، مهيأ تماماً للتخلى عنه، وأنا مهيئة تماماً لتحية الوداع الأخير.

أحضر الزجاجة. أقراص ملساء صفراء اللون، صغيرة الحجم جداً. يستوقفنى صغر الحجم. أتذكر أننى منذ سنوات، اعتنقت ما أسميته «فلسفة الأشياء الصغيرة». بعد طول تأمل، أدركت أن جوهر التميز، أشياء صغيرة.. الذى يميز حياة عن أخرى، تفاصيل صغيرة، دقيقة.. الذى يميز إنساناً عن آخر، لفتة بسيطة.

ما يفسد يوم بأكمله كلمة عابرة. ما يحدد مستقبل إنسان،

شيء صغير في الطفولة: وردة صغيرة تزيل قبح مكان، والذى يكشف عن جريمة معقدة، شيء صغير. والذى يقتل انساناً، قرص صغير.

بعد طول تأمل، أدركت كم هي «كبيرة» تلك الأشياء «الصغيرة». الجميع قادرون على الأشياء التي تسمى «كبيرة». ولم لا! فهي «كبيرة» مرئية .. محسوسة .. واضحة .. وعيب مخجل ألا نراها. هي بحكم كبر حجمها، لا تترك مجالاً لتقديم الأعذار. كم منا قادر على الشيء الذى نسميه «صغيراً»! بعد طول تأمل، وضعت تعريفاً زاد من عزلتي. «الإنسان الكبير هو القادر على الفعل الصغير».

أدخل الفراش. بجانبي كل ما أحتاج إليه. قلمي — شريك حياتي غير المعترف به —.. بعض الأوراق .. الأقراص .. كوب ماء .. والتليفون. مكالمة أخيرة رغم ضرورتها، أتردد فيها. لكن لم الضرورة! غداً سيعرف بالأمر. سوف يستعيد حوارنا المتكرر.. يتذكّر تقلبي المستمر في أخريات حياتي. على يقين أنه سيقدر ويفهم. وعدني بذلك. وهو — منذ أن أحببت عينيه — لم يخلف لي وعداً.

لكنني أشتاق إلى سماع اسمي، مرة واحدة أخيرة من بين شفتيه العذبتين. أريد أن تكون نبرات صوته، آخر لحن يطربني. وعلى أنغامه، أستسلم في هناء مطلق، لمفعول الأقراص. لكن المكالمة ستفسد كل شيء. تقديره لإصراري، لن يمنعه من محاولة

إقناعى للمرة الأخيرة. سيرجو تأجيل الأمر. أو سيطلب رؤيتى للمرة الأخيرة. وأنا لا أريد أياً من هذه الأشياء. فلتكن إذن مكالمة من طرف واحد. تماماً كما كانت من طرف واحد، العلاقة بينى وبين الحياة.

جاءنى صوته.. يردد كلمة واحدة متسائلة.. مندهشة. يغيب صوته.. أعاود المحاولة، فإذا بالكلمة تصبح كلمتين. مع كل مرة، يظل معى كلمة أطول.

يغيب صوته.. أحضره.. يغيب صوته.. أحضره.. إلى أن جاءت مرة، لم يجىء صوته.

جاء الآن الموعد. أنظر إلى الأقراص فى فرحة. ما أروع أن يكون الإنسان مالكاً مصيره! العيب الوحيد فى هذه الأقراص، أنها طريقة مستهلكة للانتحار.

بينما كنت أريد طريقة خاصة بى وحدى، منسجمة مع حياتى. لا، ليس هذا هو العيب الوحيد. هناك عيب آخر، يؤرقنى أكثر فى هذه الطريقة. فهى لا تعذب ولا تؤلم. كنت أتمنى أن أجد طريقة للانتحار تعذب وتؤلم. فالأحياء ــ أو هكذا يطلق عليهم ــ ينزعجون جداً مع كل حالة انتحار. انزعاج يصل إلى حد الاشمئزاز وإطلاق الاتهامات. والاتهام الأزلى المتكرر، أن المنتحر «ضعيف» و«جبان». استوقفنى رد فعل الأحياء ــ أو هكذا يطلق عليهم ــ على اختلافهم. رد فعل دائماً مبالغ فيه.. رد فعل يصيبهم دائماً بالتوتر والارتباك.. رد فعل لا سبيل إلى تغييره

بالحوار والمنطق. زواج كاثوليكى هم وحدهم شهوده، بين المنتحر والجبن. والقرينة الوحيدة فى صالحهم، أن المنتحر دائماً يختار طريقة للموت، لا تعذب ولا تؤلم. لهذا تمنيت أن أنتحر بطريقة تعذب وتؤلم، لأثبت للأحياء ـ أو هكذا يُطلق عليهم ـ أن المنتحر ليس جباناً. هذا ما يؤرقنى الآن. لكننى أعود وأرفض الفكرة. أرفض الانقياد إلى عقول لا تغوص إلى الأعماق. أرفض الدخول فى اختبارات تثبت إنسانيتى. أرفض «المقاييس الجماهيرية» تتدخل تعكر آخر لحظة.

لا شىء الآن يؤرقنى. أبتسم وأنا أتذكر «رقية» الطاهية، تفتح باب حجرتى وهى تلقى بصوتها المبحوح تحية الصباح. كانت فكرة صائبة أن أعطيها مفتاح الشقة. وافقت بعد تردد طويل. حقاً، لا نعرف قيمة الأشياء، إلا فى وقت لاحق. سامحينى يا «رقية»، لم أقصد «قطع عيشك». لا بد أن أدفع لها مقابل العمل أيام الشهر الماضى. أحضرت النقود وضعتها فى ظرف عليه اسمها. وتركت لها خطاباً قصيراً، فيه رقم تليفونه وأوصيها أن تطلبه بمجرد اكتشافها الأمر.

لم يبق إلا كلمة أكتبها له. لم أعرف صعوبة الكتابة كما عرفتها الآن. لم يحيرنى اختيار الكلمات، كما يحيرنى الآن. أين ذهبت الكلمات! تأتى سهلة فى اللقاء. وعند الفراق ماذا يحدث لها! تفارق هى الأخرى! وإلى أين؟

«أشكرك على صوتك ليلة الأمس.. كان رقيقاً كعادته..

بخيلاً على غير عادته . لا تحزن فأنا الآن أسعد . لن أشتاق إليك ، لأننى أخذتك معى . لأن فى البدء كانت الكلمة وكذلك تكون النهاية ، أقول أحبك » .

أحتضن قلمى ــ شريك حياتى غير المعترف به ــ .. أبتلع الأقراص كلها لضمان اللاعودة .. أطفىء المصباح الصغير بجانب الفراش . أغمض عينى هامسة « الله يرحمك يا نفسى ، كنتِ ثائرة .. كنتِ طيبة .. كنتِ حائرة » .

يدور شريط طويل متداخل الذكرى والنسيان . أحلى ما فيه أننى أشبعت حب فضولى القديم . كنت أريد أن أعرف كيف تمر الأربع والعشرون ساعة الأخيرة فى حياة إنسان . كنت أتوق إلى مصاحبة إنسان فى لحظاته الأخيرة . وحين يأتينى خبر وفاته ، أبدأ فى استعادة كلماته وأفعاله .. كيف كانت مشاعره وكيف كانت حركاته . أستعيدها من أجل ماذا ! لا أدرى على وجه التحديد . الذى أدريه ، هو أننى أشبعت حب فضولى القديم . فرق بسيط حدث . الإنسان الذى صاحبته فى لحظاته الأخيرة ، كان يعلم علم اليقين أنها لحظاته الأخيرة .

أناجى فى الظلام صديقى الحميم .. « قادمة إليك أيها التراب ، فافسح لى مكاناً » .

وككل المحكوم عليهم بالموت ، داعبتنى أمنية أخيرة فات أوانها ..... أحن إلى شرب فنجان قهوة .

النوم على حنين قديم

أختار ركناً بعيداً عن المرح والأزياء الأنيقة وقطع الحلوى. أريد أن أجلس مع وحدتى والكأس المثلج قدمته صديقتى الوحيدة بحنان له تاريخ.

مع كل رشفة أتأمل وأتذكر.

الليلة، تحتفل صديقتى بمرور عشرين عاماً على الإرتباط برجل، لم ينل من حريتها، الليلة الذكرى العشرين لوفاة قلبى، والليلة عيد ميلادى الخامس والأربعون. كيف تلاقت هذه الأمور فى ليلة واحدة؟ صدفة حيرتنى عشرين عاماً.

آخذ رشفة من الكأس المثلج المقدم بحنان له تاريخ. فى هذه الليلة منذ عشرين عاماً أحضر زفاف صديقتى. بسرعة أترك المكان لألتقى بك. فى المكان الشاهد على أول نظرة حب وأول دقة قلب وأول رعشة يد، جلست أنتظرك. بالأمس خيرتك. كل شىء فيك أو لا شىء. أنا أو هى، بشكل كامل ونهائى فى حياتك. مللت منتصف العشق. كما أنا منذ عرفتك، ظمآنة إلى عناق يهدينى إلى الحكمة. أحن إلى رجل أصبح معه واحد

صحيح. الوقت معه يجعل فوائد السفر السبعة طوع يدىَّ رغم أننى فى مكانى، وحبه هو معجزة الدنيا الثامنة. كما أنا منذ عرفتك، باحثة عن شىء ما يُزيل أرق المساء. أتعبتنى كلمة أبداً لا تقال، أتعبتنى قبلة أبداً لا تطال. مللت قربك البعيد. ولم أعد أحتمل النزيف إذ أتخيلك معها.

حرارة أنفاسك تدفئها هى.. رقتك تسعدها هى.. عذوبة صوتك تحاورها هى.. رائحتك لمتعتها هى.. سحر عينيك لتأملها هى.. رجولتك لنشوة أنوثتها هى.. قهوتك الصباحية معها هى، وسهر المساء يحتضنها هى. هى دائماً هى. أنا لا أكرهها. لكن لا شىء فى العالم يحملنى على عشق رجل لا أنال منه شيئاً، إلا الألم والنزيف. بالأمس خيرتك. عدة سنوات وأنت مؤرجح بين امرأتين. امرأة تأخذ منك كل شىء، وامرأة لا تأخذ منك شيئاً.

بالأمس، وصلت إلى آخر محطة احتمال.

فى هذه الليلة منذ عشرين عاماً، تقول لى: «لا أريد ترك زوجتى ولا أريد فقدانك». قلت: «أريد شيئاً حاسماً» تقول: «لا أستطيع» أقول: «إذن، انتهى كل شىء»

فى هذه الليلة منذ عشرين عاماً، مات قلبى، لم أرتد السواد ولم أتقبل عزاء، كان اختيارى نعم، وكان قرارى بإرادتى الذائبة فيه. فضلت الألم عن العشق المنتصف. بكامل قواى العاشقة، وقعت على وثيقة وفاة قلبى. اللاشىء أهون من شىء منه، ثم

إلى زوجة يرحل. قلت أهلاً بالمعاناة أدخلت الألم من أوسع شريان. وقدمت للنزيف دمى، بلا قيد أو شرط.

أعرف أن لا حياة عظيمة دون ألم عظيم. ولا إبداع عظيم دون نزيف عظيم. وأعرف أن لا حياة على الإطلاق، مع عشق يمن علىّ بفتات الوقت والإحساس. ويجعل منى ـ وأنا المنادية بالحرية ـ أسيرة مزاج رجل، حتى لو كان الرجل الوحيد معه أدخل فى عمق الكون الممتد بالفرح والحكمة.

أعرف أننى بعده لن أعشق. أرى المعاناة مجسدة أمامى. لكننى لن أتراجع. أى قرار هذا الذى نأخذه ويمضى كــل شىء على ما يرام؟ وكلما تذكرت آخر لحظة حين ألقى إلىّ بإختياره ورحل دون لمسة رقة.. دون انتظار حتى يهدأ الإنفعال، يزداد تمسكى بالقرار. تلك منذ عشرين عاماً كانت هديته فى عيد ميلادى.

أقرر الانسحاب من الحفل.

أنادى صديقتى، أشكرها لدعوتها وأنتزع لنفسى طريقاً إلى الخارج.

الربيع فى بدايته يجبرنى على التمنى، يهمس لى محاولاً إقناعى بأنه فصل الأمنيات، مندهشاً يسألنى «لمَنْ تظنين تتفتح أزهارى.. ولمَنْ يرق النسيم؟» ترى هل تمنيت شيئاً؟

فى المكان الشاهد على أول حكاية العشق وآخرها، أجلس إلى مائدتى المفضلة. طوال عشرين عاماً وأنا منتظمة فى المجىء هنا. هدوء المكان يسمح لى بالكتابة وبالشرود، ويسمح لى بالبكاء.

يحتفظ بين أركانه بتاريخى فى الفرحة والجرح، فكيف لا أكون وفية؟ رائحة عمرى متناثرة فيه، فكيف يغرينى مكان آخر؟ وترحابه لا يفتر، فكيف لا يفتح شهيتى؟

يقترب صديقى الجرسون ذو البشرة المائلة للسمرة قائلاً «كل سنة وأنت طيبة». أشكره وأطلب العشاء.

أتأمل المكان كأنها المرة الأولى. شىء غريب. فى كل مرة، يبدو مختلفاً. لماذا لم أمل تأمله؟ ولماذا لم تفارقنى تلك العادة أمارسها منذ عشرين عاماً، أن ألحظ كل مَنْ يدخل؟ ترى مَنْ أنتظر؟ أى صدفة صعبة المنال منذ عشرين عاماً، أتوقعها؟ أى صدفة تهب نفسها لامرأة فى الخامسة والأربعين تعيش قانعة دون قلب؟ حقاً أنا فى الخامسة والأربعن من العمر. لكننى ما زلت فى الأعماق وفى الملامح طفلة. الزمن فى حياتى لم يجرؤ على فض غشاء طفولتى.

يدخل شاب المكان. يبدو فى أواخر العشرينات، لا أدرى لماذا انتزع منى نظرة تتساءل عن لون عينيه. جلس بحيث لا أراه جيداً. طلب فنجان قهوة ثم أخذ يكتب. لماذا توقعت أنها رسالة إلى امرأة؟ لماذا تمنيت أن أكون تلك المرأة المرسل إليها سطوره؟ لا أدرى.

فجأة نهض من مكانه واقترب مني. ملامحه الوقورة تشدني.. تثير فضولى.. تعجبنى، قال «من فضلك الكبريت دقيقة واحدة» عيناه ترسلان ألفة تحيرنى.. صوته يعزف لحناً يطرب مزاجى الصعب الإرضاء.. قوامه يثير فى الهواء دفئاً، تمنيت معه لو كنا فى الشتاء. كل شىء فيه يذكرنى بحلمى القديم.. أن أحب رجلاً يصغرنى بسنوات كثيرة.

«من فضلك الكبريت دقيقة واحدة».... طلب بسيط، وأى رد محتمل أبسط، لكن اللحظة بيننا تجمدت لحظة. واقف أمامى، عيناه إلى أسفل نحو عينىَّ. جالسة أمامه، عينىَّ إلى أعلى نحو عينيه. كأننى أسمع صوت رجل لأول مرة. كأننى أرى رجلاً لأول مرة. نعم أول مرة منذ عشرين عاماً. فمنذ وفاة قلبى وحياتى قطار ماض إلى طريقه. لم يتوقف يوماً ليأتنس بصحبة رجل آخر غير الذى أدخلته دمى. لكن شيئاً ما فى هذا الشاب الوقور يمسنى. ويضطر القطار العنيد أن يتوقف. بل وأن يجد فى التوقف نشوة يستغربها وجدانى.

«من فضلك» يقول مشيراً إلى علبة الكبريت. دون كلام أناوله العلبة. مسرعاً يعيدها ويشكرنى تاركاً نظرة صاحبتنى حتى البيت، دخلت معى الفراش وتسللت إلى كتاب قبل النوم.

لأول مرة فى عمرى، أحن إلى أن أرى حلمى القديم، يورق ويتفتح كزهور الربيع.

لأول مرة منذ عشرين عاماً، أسهر مع كلمة قالها لى رجل.
لأول مرة منذ عشرين عاماً، أناجى رجلاً لا أعرف له اسماً.

واستسلمت روحى للنوم مرددة «شىء ما فى ذلك الشاب الوقور يمسنى».

أنا أو هـــــــو

يغتصبنى خمس مرات كل يوم، ليل نهار على مرأى ومسمع من كل خلق الله.

جثة هامدة إلا من أنفاس لا تصلح إلا للألم، يتركنى.

أمامى يمرون.. على أنفاسى المتألمة يدوسون، ثم يهرولون إلى حيث بشهامة انتقلت عبر الأجيال يتباهون.. وعلى شجاعة ترد الظلم وتتحمل عواقب قول الحق، يحثون.

لا أحد يتجاسر ليشعر بذلك الشعور المتحضر.. «الغضب». لا أحد يتجرأ ليستضيف الزائرة الوحيدة المشرفة للبشر.. «الدهشة». لا أحد –حين أشكو– يتوكل على الله ويتكلف عدالة الإصغاء. ثم أسمعهم يرددون كل يوم، ليل نهار على مرأى ومسمع من خلق الله: «أين أيها البشر الحريات؟ أين أيها البشر حقوقكم؟ أين حقوق الإنسان؟» فى عجب يتساءلون.. يتشنجون، يذرفون الدموع.

لكن أحداً لم يفسر لى كيف –بقدرة قادر– تُستبعد من الحريات، حريتى؟ لم يشرح لى أحد كيف اغتصابى خمس مرات

كل يوم ، ليل نهار على مرأى ومسمع من كل خلق الله ، لا يصيب «حقوق الانسان» فى مقتل؟ هل لأننى «انسانة» ولست «انساناً»؟ لكن لغتنا الجميلة ـــ حفظها الله من اللامنطق والظلم ـــ فى ثقة تقطع الشك من اليقين ، وبالقول الفصل تُذيب ضباب الرؤية «الإنسان فى عرفى يضم المرأة والرجل» . ما السبب إذن؟ لم يبق إلا احتمال أننى لست من بنى الإنسان . شىء ما لا بد أنه ـــ دون درايتى ـــ دخلنى ، وسبّبَ عدم انتمائى لقائمة بنى البشر الوقورة . لكن لا . فادراكى لواقعة اغتصابى خمس مرات كل يوم ، ليل نهار، على مرأى ومسمع من كل خلق الله ، دليل ـــ ويا للمأزق ـــ على إنسانيتى .

ويأتينى واحد .

لوجه الله تعالى ـــ هكذا يدعى ـــ يتطوع لأن يدلى بدلوه .

يشرح لى بضمير يبدو مطمئناً ، أن ما يحدث لى اغتصاب لا جدال فيه . وأنه ـــ بلا ريب ـــ انتهاك فاضح لـ «حقوق الإنسان» . وقبل أن أسمح لنفسى بالاستبشار خيراً ينهى ما بدأه ، لكنه يا عزيزتى انتهاك بسيط غير هام . ماذا يكون هذا الاغتصاب خمس مرات كل يوم ليل نهار، على مرأى ومسمع من كل خلق الله ، مقارنة بما وضح وخفى وكان أعظم؟»

ورغم أن اغتصابى خمس مرات كل يوم ليل نهار على مرأى ومسمع من كل خلق الله ، قد نال من قدرات عقلى ، إلا أن هناك بقية باقية لا تعقل مبدأ «التقسيط» هذا؟ ولا أعرف كيف

نتحكم فى الأعظم والأهم ، وقد هزمنا الأقل عظمة والأبسط أهمية ؟!

لا يفهمون . أو يفهمون ولا يردون . أو يردون بكلام لا علاقة له بالكلام ، أو لا علاقة له بالعقل . لكن الهوية المشتركة التى تمنع دماءهم من التحول إلى ماء ، وتجيز لهم حق التكاثر السريع ، هى اتهامى .. تخطيىء ، وإدانتى . ثالوث لا بد منه حتى لا تتمرد عليهم وسادة نوم لا أحد غير الله يعلم أهو محلل أم محرم . وإذا أراد الله لهم « الغضب » ، فإنهم يغضبون لاصرارى على فهم وصفوه بالبداهة . وإذا قدرت عليهم « الدهشة » ، فإنهم يندهشون من فرط حساسية بليت بها لحكمة ما ، وفى عرفهم تسمى « عدم حياء » .

يغتصبنى خمس مرات كل يوم ، ليل نهار على مرأى ومسمع من كل خلق الله . ماذا أفعل ؟

أأظل هكذا ؟ إلى حين يشب عن الطوق انتهاكى ويصبح فى عرفهم « الانتهاك الأعظم » .

فقدت احترامى لنفسى ، وأنا خمس مرات كل يوم ليل نهار على مرأى ومسمع من كل خلق الله ، مغتصبة ؟ ماذا أنا فاعلة ؟ فاعلة ؟! كيف ؟ وقد أصبحت « مفعولة بها » خمس مرات كل يوم ، ليل نهار على مرأى ومسمع من خلق الله ؟ ماذا أفعل .

يئسـت .

وعند آخر نقطة فى منحنى اليأس ، مثبتة . وبعد اكتمال جنين اليأس ، كانت ولادة الأمل .

سأقاوم وحدى .

سأوقف تلك المحاولة الحمقاء، اسمها الشكوى . سأفيق من وهم أبله دفعنى إلى الظن بأن للعدل طريق آخر غير استشهاد الواقع تحت الظلم .

يغتصبنى خمس مرات كل يوم ، ليل نهار على مرأى ومسمع من كل خلق الله .

أعرف بالثانية والدقيقة مواعيده . والحق يقال هو دوماً فى الميعاد .

الليلة ، سأبدأ المقاومة ، الليلة سأبدأ الاستشهاد .

أنا أو هو، الليلة ، فى الكون المستباح .

أنا أو هو الليلة ، فى عالم فقد الغضب والدهشة .

أنا أو هو الليلة ، وسط بشر على الملأ يتعاطون الفرجة .

أول موعد اغتصاب يقترب .

والحديث عن أول موعد ، حديث ذو شجون . يأتى فى توقيت بطبيعته ضد أى اغتصاب . مخلوق لنا لالتئام الجروح وراحة النفوس .. وإذ أغتصب فيه ، تعتصرنى أحدّ مهانة يمكن أن يجربها بشر .

يقترب الموعد . أكثر يقترب .

دقائق وتُستباح حرمة مسكنى وحرمة جسدى . ثوان ـ

وبوحشية لم أسمع بها إلا فى الأساطير– يقتحم ميراث تحضرى.

أندفع أغلق كل النوافذ.. أسد كل الفتحات.. ها هو، يشق الجدران المسلحة.. يقفز أعلى عشرين دوراً، يكسر مائتى وخمسين درجة سلم.. ينقسم.. يتكاثر.. يتضاعف ليملأ كل الأركان.

يحاصر رأسى.. ينفذ إلى خلايا المخ، يفسد كيمياء مراكز الأعصاب والكرامة والحس.. يفتت كرات الدم الحمراء.. يدق على العينين.. يمتص كرات الدم البيضاء..

أفقد توازنى وأجرى. يجرى معى رعب تتقلص معه عضلات الوجه.. وترتعش الأطراف. من حجرة لأخرى أهرول، أتكوم تحت الأسرة.. أنكمش فى الأركان، أين أذهب؟ أقفز إلى السقف، ولا يلبث أن يردنى إلى الأرض. أين منه المفر؟ وهو ممتزج بكل ذرات الهواء. قلبى يدق.. بسرعة وبعنف.. بصمت وبخوف، ويحتلنى عرق بارد.

لا فائدة، لا مفر.

مؤامرة محكمة غير مرئية الأطراف، مصوبه نحو بهجة المجىء إلى الحياة.

لا فائدة، لا مفر.

يتحدى مقاومتى.. يتلذذ باغتصابى.. يسخر من سذاجتى. وإذ تأكد أننى جثة هامدة إلا من أنفاس لا تصلح إلا للألم، يتركنى على وعد بلقاء.

مذعورة أتلفت حولى .

لم يسلم منه شىء . أطاح بأشيائى الصغيرة .. تطفل على أوراقى .. بعثر ذكرياتى .. أشاع فى الجو قبحاً ، تقاومه البشرية منذ فجر التاريخ .

مذعورة أتلفت حولى ..

الزمان مقلوب .. المكان مقلوب .. المزاج مقلوب .. بقاياه السامة تشلنى ، وتجعلنى — وهذا ليس من عاداتى أو طباعى — تمنى الموت .

مذعورة أتلفت حولى .

انتهت جولة الاغتصاب الأولى .

ألجأ إلى كل الحيَل والأعشاب لأتخلص من بقاياه ، فعندى مواعيد مع الحياة .

عندى موعد مع الكتابة .. عندى موعد مع الجرى بين الخضرة وتحت الشمس .. عندى موعد مع كلمة « لا » .. وعندى موعد مع الحب . عندى موعد لمتابعة آخر موضات الظلم .. عندى موعد مع النوم ، وعندى موعد لقراءة أحدث تيارات الفن . يجب أن أكون فى أفضل حال ومزاج ..

أتعجل ترتيب الأشياء داخلى .. وحولى .

فما هى إلا ساعات معدودات ، ويزج بى إلى جولة الاغتصاب الثانية .

مجبرة لا بطلة، أحاول النسيان كما نصحني بعض من خلق الله. وبهذيان يدرك المأساة أردد «لم يحدث شيء.. لم يحدث شيء.. انسانيتي بعد عذراء.. كرامتي بعد بكر رشيد.. حقوقي في الحفظ والصون. لن أنهار.. لم يحدث شيء.. لم يحدث شيء. فها هو الربيع مقبل.. والعصافير كعادتها تزقزق وكل شيء كما نعرفه.. وحضارتنا على ما يرام.. لن أنهار، لن أنهار» كمسافرة طال غيابها، ترجع إليّ الرغبة في العيش، وأستعد لموعد من مواعيدي مع الحياة. أنظر في ساعتي فأتجمد. جولة الاغتصاب الثانية، اقترب موعدها. منذ قذفت إلى الوجود لم يتكثف إحساسي بالقهر كما هو الآن. أدركت الفخ الواقعة فيه. وأن عليّ معاودة المحاولة الفاشلة دون ملل أو تعب أو الإصابة بالجنون.. ويأتيني في مخيلتي «سيزيف» البطل المتجسد يأساً، المستسلم صعوداً وهبوطاً لعبث، يقدم لاغتصابي أجل العزاء.

يغتصبني خمس مرات كل يوم، ليل نهار على مرأى ومسمع من كل خلق الله.

ماذا أفعل؟ محاولتي فاشلة.. نعم. لكنني لن أسلم.. لن أخضع.. لن أقبل الهزيمة.. وكيف السبيل إلى الانتصار؟ وأنا لا أملك شيئاً إلا إلحاح كرامتي. كيف السبيل إلى الانتصار؟ وأنا مجردة من كل سلاح. اللهم إلا رغبة العيش.

أحقاً، تلك فقط أسلحتي؟!

وماذا عنه ؟ ذلك السلاح دائماً أبداً يأخذ بيدى ، حين تتكتل ضدى الأشياء ، وتعاكسنى الأقدار. ودائماً أبداً ، يقفز بى عالياً . فأتجاوز ما ظننته يحنى قامتى .

لا أملك غيره ، لأواجه الكون .

أنت أيها القلم .. لا شيء غيرك يعيد إلىّ كرامتى المهدرة ، خمس مرات كل يوم ليل نهار على مرأى ومسمع من كل خلق الله .

أعرف أن لحظة لمسى للقلم تأريخ لأول خطوة فى رحلة — لا يزعجنى أن تكون أبعد من الألف ميل — لكى يصبح ما يغتصبنى خمس مرات كل يوم ليل نهار على مرأى ومسمع من خلق الله ، حشرة .

وأتذكر القول الجميل « قد تلدغ حشرة جواداً أصيلاً ، لكن الحشرة تبقى حشرة ، ويبقى الجواد جواداً أصيلاً » .

حكاية رجل



لا يصدق الأمر.

لا يعقل إقتراب الموعد، ظل سبع سنوات يؤجله بمختلف المبررات. عام يقول: «ما زلت أبحث عن شقة» عام يقول: «ما زلت أبحث عن عمل إضافى». عام يقول: «لننتظر عودة أخى الأكبر من السفر». عام يقول: «المرض المجهول يهدد الزواج والإنجاب». عام يتأثر بأجزاء متناثرة غامضة داخله ويفكر جدياً فى الإفلات. عام يقول: «لا داعى للقلق بالتأكيد العام القادم». والعام التالى يتساءل: «لِم الاستعجال».

لا يصدق الأمر.

لا يعقل إقتراب إنقلاب السماء على الأرض. وإنقلاب الإثنين على رأسه. لكن ماذا يفعل؟ أهل الخطيبة يصرون وبحدة، لم يعهدها من طباعهم المستسلمة. وأمه ـــ ذات الأصل الأجنبى ـــ تريد الفرح قبل الموت.

والفتاة ـــ جارة الطفولة ذات القوام الممتلىء والشعر الطويل المسترسل مع خصلات تغطى الجبهة، بدأت تطالب بحقوقها الشرعية.

ماذا يفعل ؟ أصبح خالى الوفاض من أى حجة جديدة .

لا يصدق الأمر .

هو .. « دون جوان » الحى ، عاشق النساء دون مسئوليات ، دون فلسفة للعشق ، دون عاطفة ، يقترب أوان تحمله مسئولية إحدى النساء تحت إسم الزواج ، ويضطر إلى ممارسة منتظمة لطقوس العواطف ؟

هو ، بمقدرته الخارقة — يحسدها عليه كل أصدقاء الطفولة — على الهروب من كل شىء وكل النساء ، أصبح محاصراً ؟ كانت مباريات كرة القدم حين يلعب النادى الأهلى أو حين تقام مبارة قومية ، ربما الشىء الوحيد الذى خضع له وأعطاه فرصة — لم تنلها أى امرأة — للتحكم فى أوقاته ومزاجه .

هو ، ببراعته فى تسمية الأشياء بعدم مسمياتها .. فالاهتمام الصادق الخاص من إمرأة يطلق عليه ، قيداً يريد سجنه فى قفص من العاطفة . والزواج يطلق عليه سذاجة تحولت إلى مؤسسة يقيمها طرفان يفتقدان إلى الشجاعة وروح الإنطلاق . الأمومة ، عطاء لا محدود لإخفاء رغبات السيطرة . إزدواجية الإحساس يطلق عليها ضرورة من ضرورات الصحة النفسية . وطريق — لا يفهمه السذج — للحياة « بالطول والعرض » قبل فوات الأوان . أما الحب فهو أصل الشرور .

الحب وهم وقعت فيه البشرية منذ قديم الأزل . الحب قمة انتهاك حريات الإنسان . الحب إختراع يقنع الإنسان به نفسه أنه

خليفة الله على الأرض. والوحدانية فى الحب قصر نظر فى رؤية تنوعات الجمال، أين تتوارى براعته هذه ـ وهو الآن فى أمس الحاجة إليها؟.

هو، بمهارته فى الإفلات من كل امرأة ـ مهما كان تورطه ـ دون أن يترك بصمة أو أثر، لا يستطيع الإفلات.

هو، المعروف بالعناد «الصعيدى» ـ إحدى الأشياء القليلة التى ورثها عن أبيه الذى مات مشلولاً بعد إكتشافه المتأخر لجحود الدنيا.

هو، الواقع من قديم الزمن فى غرام كلمة «لا» لا يملك الآن إلا كلمة نعم؟.

هو، أستاذ اللقاء المحاضرات ـ غير مدفوعة الأجر ـ ضد استمرار الأوراق الرسمية لإجبار رجل وامرأة على الحياة معاً، يوقع الشهر القادم على وثيقة زواجه؟

لا يصدق الأمر.

الشهر القادم بهذه السرعة؟

الحجج كلها فقدت معناها. شقته عادت إليه. وما ضرورة العمل الإضافى؟ لديه رصيد معقول يخفيه فى الدولاب، وأمه لا تمانع فى مساعدته. وأخوه أرسل خطاباً يرحب بتقديم العون ويوعده بالحضور الشهر القادم، ليشهد الزواج ويبارك الحياة للأخ الصغير. أما المرض المجهول، فلم يعد يقلقه. فهو مؤمن بالله إيماناً

متأصلاً، وقد ترك الأمر لحكمة الرب التى لا تطولها عقول البشر المحدودة.

الفتاة جارة الطفولة ـــ ذات القوام الممتلىء والشعر الطويل المسترسل مع خصلات تغطى الجبهة ـــ متمسكة به جداً رغم قلة الإمكانيات.. رغم المرض المجهول.. رغم تجاهله المتكرر لأبسط حقوق الخطوبة.. رغم معرفتها بأنه «دون جوان» ورغم معرفتها أنه لا يريد الإنجاب. وأسرتها لا تطيق المزيد من الزيارات والمجاملات. تصر على دخول ابنتهم بيت «العَدَلْ». العمر يجرى، وأهل الحى يرسلون نظرات مريبة إلى الفتاة المعلقة سبع سنوات.

لا يصدق الأمر.

كل الأشياء حُلت فى سرعة لم يتنبأ بها. كل المبررات فقدت قدرتها على التبرير، فى توقيت خان ذكاءه وسخر من «دون جوانيته». ويا له من توقيت.

هو يمارس منذ سبعة أشهر، فنون «الدون جوانية» مع امرأة جديدة، لم ينلها بعد بشكل كامل. لم ترض غروره، توقيت غير مناسب على الإطلاق.

هو يمارس منذ سبعة أشهر، تقليص علاقته مع الإنسانة الوحيدة التى أحبته وأعطته لوجه الله. لكنه بعد لم ينجح فى التخلص منها تماماً. توقيت غير مناسب على الإطلاق. يعلم أنها الإنسانة الوحيدة التى نسى معها لأول مرة أنه «دون جوان»، خُلق للتنقل

من إمرأة لأخرى. الوحيدة التى فجرت لديه لحظة احترام للمرأة. ولحظة سعادة لم يألفها من قبل؛ ولحظة ألم غامض. لكنها الآن عبء، ولا بد من قطع العلاقة بكامل خيوطها. هى الآن تهديد «للدون جوانية» ـ رسالته التى وجد من أجلها ـ ولا بد من إكمال الرسالة.

وهكـذا اختـــار.

فضّل التضحية بتلك الإنسانة الوحيدة، من أجل شهوة «الدون جوان» المقدسة. صحيح أنه كعادته ـ وضع غلافاً براقاً للهروب. قال لها: «أبتعد من أجلك.. أبتعد لأننى لا أستحقك.. أبتعد لأن أمى أعطتنى نصيحة قديمة ألا أرتبط بمَنْ تتفوق علىّ.. أبتعد حتى أجنبك الجرح، أبتعد لأنك أنسانة أكثر من اللازم.. أبتعد لأننى لن أفى بوعدى لك وأتخلص من خطيبتى.. أبتعد لأننى أخاف من عطائك اللا محدود.. أبتعد من أجل سعادتك..»

سألته: «امرأة جديدة تلهث وراءها وتلهث وراءك، أليس كذلك؟ منذ عدة شهور وأنا أتابع تغيرك. ألاحظ أنك تتعمد تجاهلى.. تتعمد جرح كرامتى أمام الأصدقاء، تحاول تصويرى أننى أنا التى تحبك بجنون أما أنت، فبرىء وغير مسئول عن هذا الحب المعلن، الخانق. منذ عدة شهور وتليفونك مشغول دائماً فى المساء. منذ عدة شهور وأنت لا تمن علىّ بلقاء وحدنا.. منذ عدة شهور ونحن لا نتقابل إلا فى الندوات والرحلات الجماعية أو صدفة

فى الطريق. لم ترفع سماعة التليفون لتعرف هل ما زلتُ على قيد الحياة أم مت. لم تسمعنى أى كلمة خاصة رقيقة أو قاسية. تهرب منى كأننى خطيئة أو مرض خطير تخاف منه العدوى. منذ عدة شهور، لم تنطق إسمى من بين شفتيك.

لم يتمالك أعصابه وقال: «امرأة جديدة.. ما هذا الهراء؟وما هذه السذاجة؟! ليس فى الأمر، امرأة جديدة أو امرأة قديمة. نعم تغيرت. نعم تعمدت الابتعاد، ولكن السبب هو الشجار الأخير.. السبب..

قاطعته: «وفترة الشجار، دائماً فترة خصبة لدخول امرأة أخرى. شىء منطقى جداً «الصيد فى الماء العكر» القصة القديمة تتكرر».

رد: «غير صحيح.. جاء الإبتعاد، لأننى لم أعد أحتمل، ولم أعد أفهم تقلبات علاقتنا. أبتعد عنك لتظل الذكرى بيننا جميلة. أبتعد من أجل علاقة أقل قوة ولكن أطول عمراً.. أبتعد لأعطيك فرصة السعادة مع رجل آخر. أنا لا أضيف شيئاً إلى حياتك.. وهذا يؤلمنى. أنت تتدفقين عطاءاً وحباً وأنا عاجز عن العطاء.. عاجز عن الحب.. أبتعد.. من أجلنا نحن الإثنين.. صدقينى».

تحبه إلى درجة أنها لا تصدق إلا ما يقوله هو.

رغم ملاحظاتها الوجيهة.. رغم كلام بعض الناس.. رغم أشياء كثيرة أخرى أشد قسوة، إلا أنها تسىء الظن بالدنيا كلها،

قبل أن تفكر لحظة واحدة فى إساءة الظن به. تكذب العالم كله، قبل أن تسمح لنفسها، بتكذيب عينيه أو شفتيه. هى، مهيئة تماماً ودائماً لإستقباله. مهيئة تماماً ودائماً لسماع إعترافاته بحنان زائد. مهيئة تماماً ودائماً لتقديم العون. مهيئة تماماً ودائماً للبحث عن أعذار ومبررات له قبل أن يفعل هو. مهيئة تماماً ودائماً للإشتياق اليه. مهيئة تماماً ودائماً لأن تحبه.

تحبه إلى درجة أنها أحبته هو.

هو الضعيف.. المريض.. الماهر فى التبرير.. العاشق للإزدواجية.. هو المختلف جداً، مع عقلها وقلبها. هو الذى لا يقدر حبها ولا يقدر شخصيتها. هو ـ بالتحديد ـ كما هو أحبته. وكان إسمه أجمل كلمة غزل. كان إسمه الجسر الشرعى الوحيد لعبورها إلى طائفة العاشقات.

قالوا لها: «كيف ولماذا كل هذا الحب والعطاء؟ هو لا يشبع رغباتك ولا يحقق أحلامك.. هو وهم كبير فى حياتك»

كل كلمة من كلامهم، صحيحة. فلم تنفعل أو تحاول الشرح؟..

لأنه لا يشبع رغباتها، لأنه لا يحقق أحلامها، تأكدت أنها تحبه. لا تريده أن يكون أداة توفر لها المزيد من النجاح أو السعادة، تريده أن يشبع رغباته هو، تريده أن يحقق أحلامه هو. أما رغباتها وأحلامها، فهى كفيلة بها.

حتى وصفهم بأنه «وهم كبير فى حياتها»، كان أيضاً إحتمالاً. لكنه الوهم الوحيد الذى حدث فى حياتها وتمنت تحوله إلى حقيقة. الوهم الوحيد، الذى جعلها سعيدة. وسمح لها باكتشاف المزيد من حقائق نفسها وحقائق الحياة. وهم فجّر فيها أرق العشق وأحلى العطاء. وارتضته جزءاً من حقيقة ملامحها، وعمراً لا يعوض من عمرها.

ما أجمله من وهم. ليت كل الأوهام كهذا، تضيف إلى الإنسان وتسعده.

يعلم كل هذا أو لا يعلم، ليس مهماً الآن.

المهم الآن أنه اختار شهوة «الدون جوان» المقدسة على حساب علاقته بالانسانة الوحيدة التى أحبته لوجه الله. وأطمأن تماماً للغلاف البراق الذى وصفه بأنه «يتعبه ويحزنه أكثر منها مليون مرة». وها هى تشكره على نبل احساسه وترجوه أن يغفر لها شكوكها. ولأنها وعدته بأنه سوف تتقبل أى شىء منه، فقد وافقت على قطع العلاقة. وهو لا يشك مطلقاً فى إثارتها للموضوع أو مطالبتها بالعودة. يعرف أنها انسانة حرة، ووعد الحرة دين عليها. حتى لو كان الثمن، التنازل فى لحظة عن ثلاث أعوام من العمر، استنزفت فيها دمها وخلاصة نضجها وأعصابها وكل قدراتها على العشق.

ومرت تلك الإنسانة الوحيدة ــ دون أن يدرى أحد بها ــ بسيناريو طويل مجنون، من أقسى المشاهد. سيناريو احتوى كل

ديكورات الجرح، وحركات الشذوذ، وألوان غيرة غامضة، وجميع ظلال الذهول. مشاهد متداخلة الغرابة.. متشابكة الألم. تأتيها على نوبات فجائية. نوبة بكاء حاد متشنج، نوبة ضحك هستيرى.. نوبة هذيان.. نوبة بكاء هادىء.. وينزف دمها جميع فصائل الدم. نوبة شرود.. نوبة صمت طويل.. نوبة نوم مؤرق بالحبوب المنومة.. ونوبة ندم لا تريد أن تندم. تهدأ فجآة ثم تصرخ صرخات لا صوت لها، تدوى فى أعماقها، وتفتت أقوى أشيائها. تتنهد ذكريات الثلاث أعوام فيحدث مزيد من الإستنزاف. قال لها مشكوراً: «لا تتذكرى شيئاً كان يوماً بيننا. على الأقل فى هذه الفترة الحرجة.. هذا يؤلمك.. وأنا لا أحتمل فكرة أن أسبب لك ألماً». بينها وبين النسيان عمر ممتد حتى الموت، بينها وبين التذكر دون جرح، عمر سيلازمها حتى الحياة الأخرى.

لكنها وعدته ألا تحاول التذكر.

وعدت أن تتحول إلى آلة، أنسب شىء فى هذا العصر. وكل المطلوب، فى أى موقف، أن يضغط الإنسان على أحد الأزرار. هناك زر للنسيان الفورى، وهناك زر للهروب. هناك زر للابتسامة. هناك زر للتركيز. هناك زر لممارسة الجنس. وعدته أن تدوس على زر ــ وإن كانت لا تعرف أين هوــ فقط، لتجنبه الإحساس بأنه يسبب لها ألماً.. فقط من أجل ألا تشعر عيناه بذنب فى حق عينيها. لم تعد تطيق أغنيات الحب. دخل ــ دون أن تدرى ــ فى كل أغنية حب. دخل ــ دون أن

تدرى — إلى أوراقها وأشيائها . ذكرياته حصار محكم . تتشبث بها كلما حاولت النسيان . ذكرياته اختلطت بريقها وعرقها ودموعها . ولم تعد تطيق شكل الرجال . اختصر لديها كل رجل تمنته . بعده ، تتساءل عن معنى وجود الرجال .

وبعده ، تهرب من لمسات الجمال .

الأشياء الجميلة ، تصل بعذابها إلى الذروة . الأشياء الجميلة ، تثير أكثر رغبات الحب والحياة . أول مرة ، تكتشف للقبح ميزة . القبح يولد قبحاً . ونسيانه قمة القبح . أمامه وأمام الآخرين ، تماسكت ، بدت طبيعية تماماً . لا شيء ، لا شيء على الإطلاق . أحياناً تفلت منها نظرة شاردة إلى عينيه ، أو كلمة خاصة تهتم بوجوده ، أو لحظة تذكر . لكنها سريعاً تتدارك الموقف ، تسحب فوراً النظرة والكلمة ولحظة التذكر . لم تتعود على الإزدواجية ، لكنها وعدته .

وحين تخلو إلى نفسها ، تعاودها النوبات بكل تفاصيلها النازفة . واكتسبت عادات جديدة . أصبحت تتحدث إلى نفسها بصوت مرتفع ، يندهش مَنْ حولها ، ولا تحاول حتى الإلتفات . تموت ملايين المرات فى اليوم الواحد . فلم تعد تخاف الموت . كل هذا ولا تفكر أبداً فى خيانة كلمتها له . الوفاء بالوعد لديها ، أشرف من راحة القلب . الوفاء بالوعد أهون من عذابات الفراق . هى عاشقة للكلمة .. وعاشقة له .. فكيف تتصور خيانة أحب اثنين إلى نفسها ؟

وسألتها صديقتها «كيف تقبلين على نفسك الإهانة؟ كيف لا تثأرين لحبك وكرامتك؟ لماذا تتحملين الجرح وحدك؟ ماذا يعنى الأمر؟ ليس إلا رجلا ذهب، وستعرفين آخر ينسيك كل شيء.. ماذا يعنى الأمر؟ ليس إلا حباً ضاع وستحبين مرة أخرى.. أعمق وأجمل».

لم يكن هذا رأى صديقتها الوحيدة فقط، بل رأى تاريخ الحب، ورأى الحياة المتجددة مع كل يوم تشرق فيه الشمس، وكذلك رأى الكرامة.

لكن أحداً لم يفهم.

بالنسبة اليها، لم يكن الأمر، رجلاً ذهب وآخر يأتى. كم كانت تتمنى أن يكون الأمر بهذه السهولة. هو، أصبح جزءاً منها. أدخلته منذ الليلة الأولى دمها. وبعدعينيه، صدقت الأسطورة التى تقول أن الحياة محاولة للإكتمال والتقاط النصف الناقص. بعد عينيه إهتدت إلى نصفها. كل شيء منه وفيه وعنه، كان الجزء التائه عنها فى نواحى الدنيا. بعد عينيه، سعد الله بها وبإكتمالها. وبارك لها ثلاث أعوام، أولها نظرة، وآخرها حكمة الخلق.

كيف تتحمل إذن فكرة أن جزءاً منها يرفضها، جزءاً منها يقطع علاقته بها، جزءاً منها يعمل ضدها؟! كيف تستوعب حقيقة أن دمها، لا يريد السريان فى شرايينها؟ كيف يرتبط إسم رجل آخر بكلمات الحب؟ وكيف تتنازل فى لحظة، عن سعادة الله

بها؟ كيف تتخلى فى لحظة عن حكمة الخلق؟ وكيف بعد تذوق الإكتمال تعيش النقص؟

توقيت دخوله حياتها، كان وحده شفيعاً لها بالجنون. وقت الحب معه، كان وقت استقرار قدميها على طريق النجاح. تبنى العلاقة معه، وفى الوقت ذاته، تبنى نفسها وحياتها. وقت الحب معه، كان وقت تحررها من حيرة الماضى ووقت الإصرار دون تردد، على حاضر مشابه لها، وجدير بها، وعلى مستقبل يليق برقته، ولون عينيه. كان حبه كالحياة نفسها، يعاش فقط مرة واحدة. كان حبه كحب الله، لا يقبل الشرك. كان حبه كالموت، لا بد أن يحدث. وكان حبه كالفن ممتلىء بالأسرار. وارتبطت عيناه بكل معنى أصيل وجميل. ارتبطت عيناه بفرحة لها نكهة خاصة جداً، هى الوجه الآخر، لرائحته. هى ليست طفلة وليست مراهقة، ولكنها تنتظر مكالمته، وتذهب إلى لقائه، وتفكر فيه بشكل يحيل الثلاثين عاماً من عمرها، إلى صفر على اليسار. معه تتعلم كل فنون العشق. ومن أجله تجتهد فى التفوق. نعم علمها ـــ دون أن يدرى ـــ فن الحب. وأخذ بيديها إلى فن الحياة لتعيشها دونه.

كل هذا، كان فقط جزءاً من الأمر.

فإحساسها بالخسارة، شىء آخر. فحتى آخر لحظة، كان لديها أمل أنه سيتغير، بعد رؤيته لعالم آخر من الحب والعطاء. حتى آخر لحظة، كان لديها أمل أن تصنع معه للمستقبل شيئاً جاداً له

معنى مهما كان الثمن. حتى آخر لحظة، كان لديها ثقة فى قدرة الحب على صنع غرائب الأمور. حتى آخر لحظة، كان لديها لهفة أن تسمع بصوته الرقيق كلمة «أحبك». حتى آخر لحظة، كان لديها الحلم أن يحب الحياة، حتى لو كانت قصيرة، حتى لو تطور مرضه المجهول. حتى آخر لحظة، تريد أن تكون عادلة. كيف يغير حياتها إلى الأجمل والأرق، ولا ترد له الدين؟

كان لديها أمل أن يتمسك بأبسط حقوقه الإنسانية، ويعرف سعادة كونه شخصاً متسقاً، أن يعرف متعة وحدانية الحب، أن يعرف جمال حب النفس، فلا يدمرها، وأن يعرف جمال حب الحياة فلا يغتالها. حتى آخر لحظة، كانت تريد أن تثبت له أن الحياة تستحقه وأنه يستحق الحياة، أن الحياة تحتاجه وأنه يحتاج الحياة.

كانت تتمنى أن يدرك أن حبها، فقط لوجه الله. لا تريد مقابلة أجراً أو ثواباً. لا تريد دخول الجنة على حسابه. وتريد تصحيح صورته أمام نفسه. كيف يكون عاجزاً عن الحب ــ كما يقول دائماً ــ وقد فجر لديها أجمل وأعمق قدرات الحب؟ كيف يكون انساناً سيئاً لا علاج له، كما يدعى ــ وهى مؤمنة بأصله الخير، الذى تجسد طوال ثلاث أعوام؟ حتى آخر لحظة كانت تتمناه شجاعاً، كشجاعة العشق التى خلقها فيها.

وهى تريد معايشة تفاصيل المرض من الألف حتى الياء.

لا يمكن لإمرأة أن تسعد بهذا الأمر، إلا إذا كان حبها كالحياة، كالموت، كالفن وكحب الله.

لا يصدق الأمر.

فالمرأة الجديدة يبدو أنها من طراز غريب، لم يجربه من قبل. وهو كـ« دون جوان » تثيره الأشياء الغريبة والنساء الغريبة.

المرأة الجديدة — وهذا يثير غيظه وفى الوقت نفسه يثير شهوته — لم تظهر انبهاراً بـ« دون جوانيته »، لكنها لم تنس أن تتركه يرحل، وجزء من الشهوة ما زال يشتهى.

وصحيح كذلك أنها مثله « دون جوانة ».

فهى تحب رجلاً دائمة الحديث عنه والتغزل فيه. لكن هذا شيء، والإستمتاع بلحظات عابرة من المداعبات الجميلة، مع رجال آخرين، شيء آخر. وكم أسعده هذا إكتشاف أنها هى الأخرى « دون جوانة ». فهذا معناه أنه لن يتحمل — كالمعتاد — أى مسئولية.

معناه أنه ليس مزدوجاً يدمر ذاته ويغتال الحياة، كما وصفته الإنسانة الوحيدة التى أحبته وأعطته لوجه الله. معناه تجديد لرسالته على الأرض كـ« دون جوان ». معناه المزيد من قتل الوقت بلا تساؤلات فلسفية ترهق العقل والجسد. معناه، الإستغراق فى شيء جديد ينسيه قطع العلاقة السابقة. معناه أن النساء حين يتحدثن عن تحرير المرأة (المرأة الجديدة تهتم بقضايا حرية المرأة)، إنما

يقصدن تحرير « النصف الأسفل » من حرام العفة. وهذا ـ لا شعورياً ـ يضرب لديه عصفورين بحجرواحد. أولاً، يزيح عن « دون جوانيته » أى إحساس بالذنب تجاه معاملته غير المسئولة مع النساء. وفى الوقت ذاته، يرضى الكبرياء الخفى للرجل الذى لا يريد تصديق أن هناك نساء يقصدن بالحرية، تحرير « النصف الأعلى » الذى يميز الإنسان عن الحيوان.

وهى تغار عليه. وتحاول إشعال المزيد من غيرته بالإهتمام المتعمد برجال آخرين فى وجوده. وصحيح أنها لم تعد قادرة على إخفاء اعجابها به، وشهوتها فيه والإستحواذ عليه. وهى مستعدة لأن تفعل أى شىء ليكون لها. حتى ولو على حساب تشويه صورة الإنسانة الوحيدة التى أحبته وأعطته لوجه الله.

والمفارقة، أن المرأة الجديدة ـ فى الوقت نفسه ـ كانت تشكو إلى الحبيبة السابقة منه، قالت عنه: « فارغ من الداخل.. يكرر الكلام نفسه كل لقاء.. غيور.. حياته تثير الإشمئزاز.. شهوانى وملح فى شهوانيته بشكل يثير التقزز.. يحاول السيطرة لإخفاء عدم ثقته بنفسه.. ويستغل المرض لإثارة العاطفة والشفقة » ..

وهو أيضاً لا يعرف أنها روت للحبيبة السابقة التفاصيل الدقيقة للعلاقة بينهما. كيف بدأها بسرعة غير متوقعة وشهوة معلنة أثارت دهشة « الدون جوانة »، نفسها وإن كانت تروى فخورة بالأمر. فها هو رجل آخر ـ أمه ذات أصل أجنبى، وأكثر وسامة من

الرجال الآخرين الذين يحومون حولها ــ يلهث وراءها. ولكن لكل دوره، ومكانه، ولكل وظائفه، يؤديها دون تأخر أو تردد.

ها هو رجل آخر دخل حظيرة خدمتها، ومُقيد في جدول أعمال المداعبات الحرة من وضع إطار أو فلسفة أو مبرر. رجل آخر يسجل في قائمة «المعجبين العاملين». والإشتراك لمسة هنا وقبلة هناك.

كانت تلك الإنسانة الوحيدة، تستمع إلى التفاصيل، بدهشة تقترب من الذهول. فالمرأة الجديدة تعرف قصة حبها، واستمعت كثيراً إلى نوبات الحنين إليه. المرأة الجديدة تنتظر الزواج من حبيب مسافر.. فكيف يحدث ما ترويه، بالسهولة نفسها التي تتنفس بها؟ وكيف يحدث مع الرجل الذى أحبته وأعطته، لوجه الله، واعتبرته نصفها التائه؟ استعادت في لحظة شريط الثلاث أعوام، فوجدته ملكاً متوجاً على عرش قلبها وعقلها. ما الذى ينقصه؟ ما الذى وجده عندها؟ آه، تذكرت. كانت تنقصه الشهوة. كان ينقصه صدر دائم الحركة والإهتزاز. كان ينقصه جسد دائم التحفز لإستقبال وإرسال المداعبات. كانت تنقصه العربدة. كان ينقصه امرأة تتدلع أمام الجميع وليس لديها مانع في تقبيله وسط ميدان التحرير. ماذا يعني المُلك دون عربدة وشهوة؟!

أهذا جزء من طبيعة الرجل؟ لماذا؟ سؤال يقتلها، ولا يمن بالجواب.

صحيح أن تلك الإنسانة الوحيدة، افتعلت الهدوء وهى تستمع. نعم، كذبت، ورسمت ابتسامة مرحبة بمعرفة المزيد. وأكدت للمرأة «الدون جوانة» أنه علاقة عادية، حتى لا تنهار أمامها. ولكن هــل يكفى هدوء مفتعل، لأن تصدق تحول ثلاث أعوام من العشق، إلى ماض هكذا فى غمضة عين؟

الآن وبعد كل شىء يعنيها أمره.

لم يؤلمها شيء قدر تبديده لشبابه وعواطفه. ما زال هو، الذى يعنيها وأيضاً لوجه الله.

نعم ما زال يعنيها.

حتى نفسها، لا تفهم. كيف تجرؤ على التصريح بأنه ما زال يعنيها بعد أن عرفت أدق تفاصيل العربدة؟ بعد أن أدركت سر التغير؟ بعد أن اكتشفت عدم احترامه لها على الملأ؟ والسبب توتر كيميائى يؤرق النصف الأسف. لأول مرة تريد اعادة فهم «فرويد».

نعم، ما زال يعنيها.

حتى نفسها، لا تفهم. كيف تجرؤ على التصريح بأنه ما زال يعنيها، وقد غرست علاقته بتلك المرأة «خنجراً» مسمماً لا مفر من الإستسلام له؟

«خنجر» مسمم يقطع فى رحلات بطيئة طويلة، أرجاء جسدها.

« خنجر » بعد غربة طويلة بين الأجساد، اهتدى إلى موطنه .. استقر .. رفع العلم .. أعلن الإحتفال .

« خنجر » مسمم بالخديعة .. بالغثيان .. بعدم التصديق .

« خنجر » مسمم بالندم .. بالرغبة القاتلة فى الفهم .

« خنجر » يقطر دماً كلمة من خمسة حروف تشرد أمامها .. مرعوبة من الإجابة . « لماذا » هو .. هو .. مع أخرى . ومع تلك بالتحديد .. أهذا المستوى من النساء .. مستواه ؟ كابوس لا صباح له .. وحقيقة مخيفة قتلت الأمان ، وبعثرت الثقة فى البشر .

هو .. هو مع أخرى .. مع تلك بالتحديد .. أهذه العربدة المبتذلة ، شهوته ؟ يا ربى .. حتى العربدة لها حد أدنى .. حتى الشهوة لها حد أدنى .. يا ربى .. لا أفهم .. مستحيل . ترفض التصديق .

الزواج يقترب ، والـ « دون جوان » مجروح فى كبريائه ، وفقدان الحبيبة السابقة ضغط أكثر من اللازم ، وأكثر مما توقعه ، على أعصابه . لا يعرف كيف يتحمل هذه الكوارث دفعة واحدة ؟

وتذكـــــر .

تذكر ليلة الأمس ، خطيبته ـــ جارة الطفولة ذات القوام الممتلىء والشعر الطويل المسترسل مع خصلات تغطى الجبهة ـــ تجلس على كورنيش النيل فى طريق « المعادى » . يجلس بجانبها إلى درجة سمحت لها « بالتشعلق » فى ذراعه . ترتدى فستاناً أحمر

أهداه لها فى عيد ميلادها الخامس والعشرين. الموافق العيد الخامس للخطوبة. وهى حريصة على ارتدائه، ليس فقط لأنه لون النادى الأهلى، ولكنه يبرز مفاتن بشرتها البيضاء الممتلئة أيضاً.

يرتدى بدلته الرمادى الأنيقة. لماذا تأنق الليلة معها؟ لماذا يجلسان معاً بهذا القرب؟ لماذا سمح لأصابعه بالدخول إلى شعرها الطويل المسترسل؟ ولماذا أصلاً اقترح الموعد؟ تساؤلات تدهشه. وأكثر يندهش، لأنها أول مرة، يحس بالدهشة، من أمور ظل يمارسها سبع سنوات، دون لحظة توقف.

فى كل مرة لقاء معها، ينظر طويلاً فى عينيها ويكاد أن يقول شيئاً، لا يعرف ما هو. تسأله خطيبته، فلا يرد. ولا تحاول الضغط عليه.

هى —فى حقيقة الأمر— لا تمارس أى نوع من الضغوط عليه. تتركه هو، يقود دفة العواطف.

حينما وعد الحبيبة السابقة، بأن يحاول جاهداً التخلص من الخطوبة. فكما قال لها وصدقته أنها هى التى يريدها. فقط كان يريد بعض الوقت، ليفلت من الخطوبة دون أن يجرح احساس الخطيبة. حينما أعطى هذا الوعد —الشرط الوحيد الذى برر الإستمرار ثلاث أعوام— كان يطيل النظر إلى خطيبته. يحاول النطق، يحاول بدء أول خطوة للوفاء بالوعد. لكن شيئاً ما لا يعرفه، أخرس لسانه. وجعله يدرك أنه وعد لا تقدر عليه شخصياته المتضاربة

داخله. وعد —فى الواقع.— تورط فيه، فهو يريد الخطيبة. منذ متى يتورط الرجل فى حب أو خطوبة أو زواج؟ منذ متى، يمارس الرجل الحب أداءاً للواجب؟ منذ متى يفعل مع المرأة ما لا يريد؟ بالأمس على كورنيش نيل المعادى، قالت له: «لم أعد أطيق

الإنتظار. كل شىء —والحمد لله— أصبح جاهزاً. لا تتصور كم أتحمل من أهلى نظرات الريبة والكلمات الجارحة فى حقى وفى حقك. أتحمل من أجلك. أعرف أنك لى مهما طال الوقت ومهما ابتعدت. أريدك وسأظل أريدك حتى آخر العمر. أنت تكلنى وأنا أكملك».

اقتربت أكثر.

شعر بأنفاسها المرتعشة تطلب جزءاً من حقوقها المؤجلة سبع سنوات. يتذكر أنه فى كل مرة، كان يفضل —لسبب غامض— عدم الإستجابة، يتذكر أنه فى كل مرة، يستجيب والسبب غامض أيضاً. مرة يستجيب بلمسة تتحسس القوام الممتلىء. مرة يستجيب بقبلة تستغرق وقتاً كافياً لإشعارها بأن زوج المستقبل «دون

جوان». مرة يستجيب بلحظة احتضان يقدر عليها كل رجل. ليلة الأمس، استجاب بمزيج جامع لكل هذه الأشياء. لحظة أخرى تثير دهشته.

أذابها المزيج الحادث لأول مرة وهمست همساً أقرب إلى الصراخ، أو صرخت صرخة أقرب إلى الهمس «أحبك».

في كل علاقاته النسائية السابقة ، فى الحى الذى يقيم به ، أو فى أحياء القاهرة الأخرى ، كان يقف بالمرصاد لكلمة الحب . يقف وفى يده « كرباجاً » من اللمسة والنظرة والسلوك ، لأى امرأة يدفعها بـ« دون جوانيته » إلى قول « أحبك » . يتفنن فى إيقاع النساء فى حبه ، وإذا اعترفت إحداهن بانتصاره ، وسمحت لشفتيها بالذوبان وقول « أحبك » يبدأ فوراً فى عقابها . والعقاب يحدده وفقاً لدرجة الصدق أو الحرارة التى قيلت بها كلمة الحب . كلما زاد الصدق وزادت الحرارة ، اشتد عقابه . ولديه سلم تتدرج عليه درجات العقاب . فمن التجاهل المفاجىء ، إلى الإعتذار عن المواعيد ، إلى الاختفاء لفترات دون اعتذار . وتصل قمة العقاب ، حين يبتعد نهائياً . يجرى ليعرف أخرى أكثر صلابة أمام « دون جوانيته » . عادة يمارسها بانتظام منذ بلوغه سن الرجولة ، تماماً كما يمارس بانتظام صلاة الجمعة ، ومشاهدة مباريات كرة القدم .

كيف ولماذا يحرم كل النساء من أدنى الحقوق .. ومعها يعطى كل الحقوق ؟

كيف ولماذا تتغير قوانين حياته مع هذه الفتاة ؟

كيف ولماذا تخور كل قواه مع هذه الفتاة ؟

لماذا لا يعاقبها على كلمة الحب ، كما يعاقب الأخريات ؟

لماذا هو شجاع جداً مع الأخريات ؟ وجبان جداً معها ؟

لماذا بكل سهولة يقول لها « أحبك » ؟

لماذا معها فقط يتذكر أن هناك مبادىء «وفاء» ؟

لماذا معها فقط يتحمل مخاطرة معاشرة إمرأة تحت سقف واحد؟

لماذا لا يبتعد أو يختفى، حين استقر أمر الزواج، بعد سبع سنوات من التأجيل؟ لا يعرف. ما السحر فى هذه الفتاة؟ ما السر السارى بينهما؟ يختفى فترات طويلة ويعود إليها. يجرب نساء الدنيا ويعود إليها. يجرح كل الأخريات ولا يجرحها.

ما السحر فى هذه الفتاة؟ ما السر السارى بينهما؟ هل تملك دليلاً ضده، تهدده به؟ هل قوامها الممتلىء هو السحر؟ شعرها الطويل المسترسل؟ أم يتركز السر السارى بينهما فى تلك الخصلات التى تغطى الجبهة؟ هل يتزوجها لأن «النبى» وصّى على سابع جار وهى أول جار؟! أو يحبها فى اللاشعور؟

بعد أن أفاقت من المزيج الحادث لأول مرة من يديه وشفتيه، قالت الخطيبة، جارة الطفولة: «سأجعلك أسعد رجل فى العالم. سأفنى روحى فى خدمتك. لن تندم لحظة على الزواج منى. أنا أولى بك من أى إمرأة أخرى. فأنا جارتك وصديقتك وحبيبتك، وأمك». بعد لحظات شرود يقول: «معقول» تسأله: «هل أنت خائف من المرض؟ حبيبى لا تقلق. سأكون خادمتك وممرضتك. وأنا عند وعدى، لا أريد أطفالاً. أريدك أنت فقط. أنت حبيبى

وزوجي وطفلي. ومَنْ يدري. قد تحدث معجزة وتشفى بعد الإستقرار في الزواج. زواجنا ـ بعد هذا العمر ـ معجزة. فلم لا تحدث معجزة أخرى وتشفى ؟ »

يرد « معقول » .

كلامها يزيد من عذابه .

فكيف يتركها بعد سبع سنوات من الخطوبة ، وهى تضع كل حياتها بين يديه ؟ كيف يجرؤ على جرحها ، وهى تتقبل كل سلوك ؟ كيف يسيء إلى سمعتها ؟ كيف يتركها وهى أول إمرأة تنال شرف ولقب « خطيبته » ؟ كيف يتركها وهو لم ينس ذكريات الشباب معها . وأجملها ذكريات ركوبها وراءه على « الموتوسيكل » . يسافران معاً إلى كل الدنيا . تحكم قبضتها حول خصره . وفى طريق هادىء ، خافت الأضواء ترسل قبلة ، ويرسل هو ابتسامة راغبة فى المزيد . والمزيد دائماً فى بيته ، حينما تتعب أمه ذات الأصل الأجنبى من قراءة رواية فرنسية ، وتخلد إلى النوم . تحلم بعائلتها المتفرقة فى قارات العالم الخمس . تحلم بحياة كانت تريد أن تحياها . وتحن لزوجها الصعيدى . صحيح هو أتعبها . لم يفهم الإنطلاق داخلها . لم يمارس معها الزواج كما أرادت ، وكان متزمتاً . لكنه كان حريصاً على مشاعرها .. كان وفياً للعشرة بينهما . كان حقاً يحبها وإن كان على الطريقة الصعيدية التى لم توافقها . ولم يكن « دون جوان » .

كيف يترك الخطيبة وكل أصدقائه يعرفونها جيداً ويسألون

عنها . كيف يتركها وزملاء العمل يبتسمون له ، حين تطلبه عبر الهاتف . **كيف يتركها وقد أصبح إسمها ، ذو الأربع حروف ، جزءاً من دمه . كيف يتركها وهى ترحب بالإقامة مع أمه .**

سؤال آخر يعذبه .. ربما أكثر .. وكيف لا يتركها ؟

لا يريد الزواج بها .. لا يريد الزواج بأى إمرأة .. لا يريد مسئوليات ، لا يريد واجبات أسرية .. لا يريد إطاراً للمستقبل . لا يريد أن يفاجأ بشخصية أخرى بعد الزواج . لا يريد أن تمتلكه إمرأة باسم الشرع وبأمر القانون . لا يريد جسد إمرأة واحدة ، بل أجساد كل النساء . يكره التفكير فى الغـد ولـم يفكر فيه ؟ « الدون جوان » خُلق لليوم فقط .. وليس للغد . « الدون جوان » ، خُلق للحظة عابـرة .. للمتعة السريعة .. « الدون جوان » ليلة وتمضى وليس ليال قادمة . الإستقرار خُلق لبقية الرجال .. أما هو فلديه رسالة لا بد أن يؤديها .. رسالة امتصاص الرحيق من كل الزهور ، والتنقل الحر ، من غص لآخر . هكذا برر لنفسه نمط حياته ليعيش حياته . ويتخذ التبرير بعداً حاداً ، حين يتذكر أنه ليس « دون جوان » عادى . وإنما « دون جوان » مريض بأعراض تهدد كل حياته .

لا يصـدق الأمــر .

الآن ، لم يعد قادراً على التبرير . الآن ، تبدو نفسه غريبة على نفسه . الآن ، يخيفه نمط حياته . الآن تهز مكونات عقله وينبض قلبه نبضاً ، يؤرقه إلى حد النوم لساعات طويلة . الآن ، ولأول مرة

تختلط عليه الأمور. أيهما كان أسبق ، « الدون جوان » ، أم خوفه من المرض المجهول ؟ ما الحقيقة وما الوهم ؟ إذا كانت الخطيبة حقيقة فكيف وعد المرأة الجديدة بالزواج ؟ هل كان يخطط للتخلى عنها بعد سبع سنوات ؟ وإذا كان حقاً كما يدعى متورطاً فى الزواج ، لماذا حجز أسبوع العسل فى أفخر قرية سياحية تطل على البحر الأحمر مع أصدقاء الطفولة ، وهو دائم الحديث عن قلة الدخل وحريص على النزهات الرخيصة ؟

الآن ، لماذا يتذكر الحبيبة السابقة حين قالت له أن الخلل فى روحه وليس فى جسده . قالت له : « الضمور ليس فى عضلات يديك . الضمور فى مشاعرك ومبادئك » .

لا يصـــدق الأمـــر .

لماذا يخاف ؟ لماذا أصلاً يتساءل ؟

هو ، لم يتساءل من قبل عن أى شىء .. هو ، لم يندهش من قبل .. لم يحزن من قبل .. ولم هذا الثقل فى روحه .. وفى هذا التوقيت ؟ هو ، لم يفكر فى حقيقة المرض أو الخلل من قبل .. لم يفكر فى حقيقة أى شىء . كان شعاره « طظ » ، حياة وتمضى بأى شكل .

لا يصـــدق الأمـــر .

الـ « دون جوان » ، يتغير .
الهارب من كل مسئولية ، يتورط .

الراض دائماً ، يشكو.
السعيد دائماً ، يكتئب .
الفائز دائماً ، يهزم .
عاشق السهر ، ينام كثيراً .
الرقيق جداً ، أصبح عدوانياً .
عاشق النزهات ، يقبع فى البيت .
المكابر دائماً ، يعترف .
ذو الأصل النقى ، يتلوث .
ذو الذاكرة الضعيفة ، يتذكر أشياء غائرة فى الذاكرة . غريبة ، تدهشه ، وتخيفه .

تذكر أن أمه ذات الأصل الأجنبى وأبيه الصعيدى ، حاولا إنزاله وهو جنين . الصدفة وحدها ، تدخلت فى آخر لحظة وأرادت وجوده فى الحياة .

كلما أوغل فى ذاكرته ، زادت دهشته وزاد خوفه . لكن شيئاً ما يتحمل الدهشة والخوف ، يحمله على التكلة . وتأتى أمه ذات الأصل الأجنبى ، فى خاطره .

تذكرها ، وقد قامت من فراشها بعد أن نام الجميع . تجلس وحيدة مع فنجان قهوة ودموع لا تتوقف إلا مع آذان الفجر . هو الوحيد الذى رأى هذا المنظر المتكرر. لأول مرة يتساءل ، لماذا هو بالتحديد من بين أفراد الأسرة يستيقظ فى الليل ، ليرى هذا المنظر؟ كان صغيراً حينما رأى لأول مرة هذا المنظر. ومنعه صغر

سنه من إدراك السر وراء فنجان القهوة الساهر مع دموع أمه. كل الذى فهمه أنها غير سعيدة. لكن لماذا؟ ومنذ متى؟ لم يعرف. تمر الأيام. تكبر أمه. وهو يكبر. وتكبر رغبته فى تعويض حلم فى حياتها لا يعرف تفاصيله.

ما زالت الذكريات المنسية، تتدفق إلى ذاكرته، يندهش، ويخاف. ولا يملك شيئاً إلا المواصلة. يتذكر شيئاً، كان يفعله وهو طفل صغير، عندما يتشاجر مع أسرته. كان يندفع إلى حجرته، يحضر حقيبة المدرسة، يلم بعض ملابسه، وأشيائه الصغيرة مثله، يجرى إلى الباب يريد أن يترك البيت.

تدفق الذكريات يحدث دون ترتيب منطقى، دون علاقات يفهمها. الآن تظهر له ملامح أبيه الصعيدى، فوراً بعد ملامح طفولته، يتذكر قسوته.. تزمته، خفة روحه.. أصدقاءه الذين رحلوا.. محل البقالة فى حى «الدقى» الذى كان يشترى منه عشاء الأسرة. يتذكر طيبة قلبه، رغم التزمت. يتذكر شرف أخلاقه، رغم القسوة. يكفى أن يعرف أحد أنه إبن الأستاذ المرحوم «فلان»، حتى يحسن استقباله ويأخذ يعدد محاسن الأب، نادرة الوجود ويعرض خدماته دون مقابل.

يتذكر هذه الأشياء التى يضعها لصالح أبيه، فتدمع عيناه إشتياقاً إليه. لكن الإشتياق لا يكتمل. فى اللحظة نفسها، يتذكر أن أباه، فشل فى إسعاد أمه. تذكر أنه قضى على البقية الباقية من صحتها، حين رقد مشلولاً فى الفراش لمدة عامين وكانت

الخادمة والممرضة بلا حدود للعطاء، بلا لحظة تذمر. يخاف أن يتطور مرضه المجهول، إلى الشلل. يخاف أن يرى صورة أبيه تتكرر فيه. يخاف أن يقضى على البقية الباقية من صحة إمرأة تقوم بدور الخادمة والممرضة. وحين يرحل، لا يترك إلا ذكرى تعيسة ودموع قد تتساقط ليلاً مع فنجان قهوة.

ويتذكر أيضاً أنه تسبب فى جرح كل إنسان أحبه بعمق. أبداً لم يُسعد إنسان أسعده. فيصرخ ضميره الضائع. وكيف يعطى السعادة وقد نشأ فى بيت، صاحبته غير سعيدة؟

مذبذب بين العتاب والحب، هذه هى علاقته بأمه.

مذبذب بين الاتهام والإعجاب، هذه هى علاقته بأبيه.

مذبذب بين الشك واليقين، هذه حالته مع المرض المجهول.

مذبذب بين الزواج والإفلات، هذه حالته مع خطيبته.

مذبذب بين الراحة والعذاب، هكذا هو حين يتذكر الإنسانة الوحيدة التى أحبته لوجه الله.

مذبذب بين الشهوة والندم، هكذا هو حين يتذكر المرأة الراغبة المتمنعة.

مذبذب بين الصدق والكذب.

مذبذب بين الخوف والأمان.

لا يصدق كل ما يتذكر، وكل ما يشعر به، لأول مرة فى

دفعة واحدة. جزء ما لا يعرفه يصرخ داخله، ليتدخل فى الأمر ويحدث شيئاً ما.. لكن كيف؟ لا يدرى.

سلسلة من الغموض وعدم اليقين والخطيئة تلف به ويلف بها. تصيبه نوبات من الكآبة والفرح، دون مبرر. تظهر له الكوابيس. ويصرخ أثناء النوم. إحساس لأول مرة بالاشمئزاز من نفسه المتعددة وحياته المبددة. إحساس لأول مرة بأن الحياة لا بد أن تكون شيئاً أكثر من شهوات عابرة ونزهات لطيفة.

ميلاد جديد ينتظره.. نفس جديدة تناديه.. أفق مختلف للحياة يلمح فى خاطره.. ثمن ينتظر منه السداد.. استقرار ما يجيء له فى الأحلام.. رغبة فى الشفاء ترغب فيه.. روح ممتدة للمغفرة تلوح له.. عقيدة تناجيه.. ذكريات غامضة نقية حريصة عليه.. أين كل هذه الأشياء التى تلوح فى غمضة عين وتذهب؟ وكيف يصل إليها؟ لا يعرف. هل حقاً لا يعرف أم لا يريد؟ لا يعرف. أو يعرف ويتعمد التبرير؟

كل الذى يعرفه، أنه سيتزوج الشهر القادم بعد سبع سنوات. من التأجيل والمبررات، بالفتاة جارة الطفولة ذات القوام الممتلىء والشعر الطويل المسترسل، مع خصلات تغطى الجبهة، فى أسبوع عسل بعيد عن القاهرة.

وأنه سيستمر فى محاولات إطفاء شهوة الـ«دون جوان» المقدسة مع المرأة الوفية لطقوس التمنع، رغم الصدر الممتلىء

دائم الحركة والإهتزاز ورغم الجسد المتحفز دائماً لإستقبال وإرسال المداعبات.

وبعد ليلة قرية حالمة التحم فيها الجسدان، سيلهث وراء أخرى تثير عربدة جديدة. مع إستمراره فى صلاة الجمعة، ومتابعة مباريات كرة القدم.

وأنه فقد الإنسانة الوحيدة التى أحبته وأعطته لوجه الله.

هارمـــونی



إلى سماء أقل زرقة وأكثر رمادية ،

إلى سماء لا تسأل المجاب عليه من الأسئلة ،

إلى سماء أكثر خيالاً وأقل واقعية ،

تتــوق روحـــي .

لماذا خلقت بتلك التركيبة الشيطانية ، منها يغار البشر ، وعليها تحق لعنة الآلهة ؟

لماذا مشاعرى جواد برى يطيح فى الكل ، منفلت من كل أفق ، لا سقف له ولا أرض ؟

لماذا أفكارى تسابق ــ دون هوادة ــ السحاب ؟

لماذا أنا أكثر من المفهوم ، وأكثر من المطلوب ،

وأكثر من المحسوس وأكثر من المتاح ، لا منتمية ؟

لماذا أنا أكثر من اللازم ، حرة ؟

حارة جداً الليلة .

ومع قطرات العرق، تزداد مشاعرى برية.

حارة جداً الليلة.

ومع الهواء الساخن الداخل إلى حدودى، أحس أكثر برودة التناقض. كيف لجواد برى أن يرمح فى ثقب؟

كيف لامرأة حرة أن تتنفس ملء رئتيها، وأنقى الهواء يخطب ود الجوارى؟

وكيف فى عالم يضطهد الشجر، أحتفظ بخضرة الحلم؟

غارقة فى التساؤلات، وغارقة فى العرق، وإذا بسطر فى الجريدة الصباحية ينتشلنى رغم أننى لم أطلب الإنقاذ.

«حفل للموسيقى العربية الليلة التاسعة مساء بدار الأوبرا»

أقود سيارتى وبى قليل من الشرود. أطمح إلى يقظة تهز روحاً تدرك بكامل الرضا مأساتها.

ما هذه الدنيا المرعبة التى حولى.

ناس فى كل مكان.. أصواتهم مرتفعة.. ملامحهم بدون وجوه.. ميكرفونات على طول الطريق تغتصب حرمة الهواء.. قمامة متناثرة فى الأركان.. حرارة رطبة تثقل الروح.. دخان يختلط بغياب اللون الأخضر فيشيع فى الجو كآبة لا مفر منها.. عيون الرجال تتطفل على كل امرأة تجرأت على خطيئة السير، وحيدة.

دخلت دار الأوبرا.

وكأنني إلى حدود مدينة أخرى، عبرت. هدوء.. خضرة نظافة.. لا دخان.. لا تطفل. الفاصل الزماني والمكاني بين «القاهرتين» يخيفني.

أترك الظمأ الطويل لخطوة تتهادى يرتوى قليلاً. مزاجي على استحياء، يتخلى عن عناده، وبرقة مترددة يُمنيني بليلة لا تدخلني قفص الإتهام. ولم لا؟ وأنا من رأسي وحتى قدميّ عاشقة ــ لا تريح ولا تستريح ــ للموسيقى العربية.

مع «سيد درويش» أتضاعف حتى أملأ الكون... مع «القصبجي» أبكي فرحاً... مع «السنباطي» تتفتح ذكرياتي مورقة بحنين لا يهتدى... يدخلني «زكريا أحمد» إلى «أهل الهوى» وأنا بدون حبيب... ينتشي دمي مع «محمد فوزي».. و«عبد الوهاب» يهبني عمراً فوق عمري، إذ تتحرك شفتاه نغماً. أما مع «فريد» فتأتيني السلوى سخية، وعلى موسيقاه أتألق نهمة لاعتصار أشهى ما في الحياة. لم لا تكون ليلة مختلفة ومع «أم كلثوم» أسرار الغرام الأول؟ ومع «ليلى مراد» استعدت توحدي مع الماء والأرض والهواء؟ أما «أسمهان» فقد أطلقت سراح طاقة شجن ملت الأسر. كيف لا تكون ليلة مختلفة وبيني وبين المقامات الشرقية علاقة غار منها كل رجل قُدر له أن يطرب لملاعبي؟ وكل إيقاع له عندي حدوتة وأمنية وتنهيدة. وعلمتني الموسيقى المفارقة الساحرة.. كيف في تسليم الأمر إليها، يسلم

العالم نفسه إلىّ. الليلة أنا فى عقر دار الموسيقى والغناء، فكيف لا يلين المزاج؟ وكيف لا يصبح المحال ممكناً والممكن محال؟

تسألنى فتاة الشباك «أين تودين الجلوس؟» أنظر فى عينيها، أعثر على خيط من الود، أتشبث به. قلت: «سأترك لك الخيار. شرطى الوحيد أن يكون المقعد لائقاً بعشقى الجامح للموسيقى» ابتسمت وهى تعطينى التذكرة.

لم يخدعنى خيط الود فى عينيها ولم أخطىء حين تشبثت به. فاختيارها كان كل ما أتمناه.

دقائق ويزاح الستار.

أتأمل مَنْ حولى وفى التأمل عزاء. أتأمل مَنْ حولى وفى التأمل اصرار على أن أبقى كما أنا.

تدق التاسعة ويظهر القائد أو «المايسترو» وسط عاصفة من التصفيق. لم أصفق. فأنا أكره القيادة ومَنْ يقوم بها. كما أننى لم أكن على يقين أنه يستحق. وكيف لى أن أتيقن. وهذه أول مرة أراه؟

بدأ البرنامج.

ومنذ الأغنية الأولى وحتى الأغنية الأخيرة وعلى مدى ساعتين، وعيناى مشدودتان لا إلى الفرقة التى تغنى ولا إلى الفرقة التى تعزف. ولكن إلى «المايسترو». منذ الأغنية الأولى وحتى الأغنية الأخيرة، وعلى مدى ساعتين، وكل كيانى هناك

بين يديه على المسرح. بيدين متوحشتين لكن حانيتين يدخل إلى النغمات المسالمة، يشق الطبقات اللاممكنة من الصوت، عن كبريائها تتنازل وتصبح على يديه ممكنة. ساعتان ودورتى الدموية تحاكى إيقاع جسده المتوهج موسيقية. ساعتان وأنفاسى بدقة تتابع حركاته. تتوقف إذ يتوقف، تصعد وتهبط إذ يعاود الحركة. أصابعه المحلقة فى الجو، أخذتنى إلى آفاق تنتحر طموحاً. ولمسته المتكررة على خصلات شعره، تأشيرة دخول إلى «فردوس مفقود». ويبدو فى الرداء الأسود الطويل، فارساً من العهود القديمة، يستشهد من أجل لحظة فن أو عدل أو حرية.

«هو» نار أحرقت غربتى، فاشتقت إلى أوراقى والقلم.

«هو» ثورة عارمة لا مرجع لها فى التاريخ تنكرت لتسكن رقة رجل، لا يتردد فى البكاء حين يشجيه النغم.

«هو» جنون وسيم الملامح، يسخر من عالم أتعسته شدة التعقل، حماسه المتدفق عذوبة، يُخجل دنيا لا مبالية.

و «هو» سر ما، ظللت عمراً أنقشه على جدران الكون.

وسمحت لنفسى أن أفكر فيه وهو جنين، ضرباته الضاغطة للخروج، «مزيكة» تُطرب الأمر، فتلده دون ألم.

أتخيله يمد يده إلىّ، وبعينين فيهما ألوان الطيف يقول لى «لا تضعفى»، «لا تنتمى»، «طيرى عالياً واكتبى».

لا أصدق ما يحدث لى؟ كيف رقصت مع كل قطرة عرق منه؟ حتى موعد فجر لا يلوح.

كأننى منذ زمن بعيد أعرفه. ومنذ زمن أبعد أشتاق إليه. كأنه الليلة على المسرح من أجلى أنا وحدى. وكأن الدنيا خُلقت وتجملت وتحملت كل العناء وامتلأت حنيناً وشــجر، من أجل «هارمونى» بيننا لا يفهمه بشر.

ماذا فيه يأسرنى؟ ماذا عنه يثير اشتياقاً طال الاشتياق إليه؟ ماذا فعل هذا «المايسترو» لينهى تاريخى الرزين؟ كيف فى لحظات بدد «موال» الحياة الرتيب؟ ماذا فعل بى لتصبح أجمل أمنياتى الآن أن أتخلى بكامل ارادتى وعقلى، وأتنازل ـ بطيب خاطر ـ عن انسانيتى وحلاوة قامتها الفارعة، لا لسبب إلا لكى أتشكل بين يديه .... غنوة. ولماذا الآن بعــد الحفل أسرع الخطى لألقاه؟ ألقاه؟ بالطبع! وهل هناك من سبيل آخر؟ أبتسم وأنا أتذكر «طاغور» حين قال بـ«شجاعة الأخذ».

ها هو قادم. مزيج من الرشاقة والوقار، وجسمه يعزف مع الهواء أغنية دفينة فى الأعماق.

أوقفته وعرفته بنفسى، وبدون تردد مألوف لصوتى أقول: «أنا مدينة لك بالشكر، ولا أحب النوم قبل سداد ديونى». بدهشة يبتسم ويقول: «معذرة لا أفهم» قلت: «أنا فنانة مثلك والليلة أدخلتنى أنت إلى عالم من الابداع طال انتظارى له. واستحضرت مع حركاتك المتوهجة شيئاً كدت أفقده من ذاتى. من فضلك دعنى أشكرك بطريقتى» تتسع ابتسامته يسألنى وبريق فى عينيه يخايلنى: «وكيف تلك الطريقة الهابطة علىّ الليلة من السماء؟»

أقول «لتكن ضيفى الليلة، وليتسع وقتك إلى صحبة فنانة تعشق الموسيقى، وتهفو إلى حوار مع فنان» يصمت لحظة ثم يمنحنى الرد: «لا أستطيع أن أرفض دعوة فنانة تعشق الموسيقى».

ولأنه ضيفى، فقد تركت له اختيار المكان. ألهذا السبب أشم نغماً شجياً يتطاير فى الأركان، وفى همس محبب إلى روحى، يبارك بهجة عائدة من السفر؟! أحس أننا معاً جالسان على سلم موسيقى لا نهائى الدرجات، يقودنا إلى عالم ساحر مسحور.

كأسان مثلجان يقتسمان المسافة بيننا، ويطلان معنا على «النهر الخالد». على صفحة المياه، تنعكس قوة الحياة.. أتذكر أن النهاية فناء، فأتشبث باللحظة، أعتصرها وأشربها ساخنة.

أجفف عرقاً فرحا.. أتسلل إلى لون عينيه.. أتابع تشكلات شفتيه حين يتكلم وحين يصمت. أستأذنه لقراءة أبجدية حياته، يستسلم. يستأذننى لمعرفة «مقامات» و«طبقات» حياتى أستسلم. أحكى عن تفاهات البشر.. يستعيد ذكريات فى ضوء القمر.

أسأله: «هل تدهشك دعوتى الليلة». يأخذ رشفة من الكأس المثلج.. تشرد عيناه لحظة ثم يقول: «وهل للفنان أن يحيا دون دهشة؟» يسعدنى سؤاله، يؤكد لى أن إحساسى به لم يخطىء العنوان.

الحوار بيننا له مذاق مُسْكر. لكنه فى أرق حالة يقظة ممكنة لرجل، وأنا فى أجمل حالات إنتباهى.

تحلق بنا الكلمات. مرة فى سماء الفلسفة.. مرة فى سماء الفن.. مرة فى سماء السكون.. مرة فى سماء الحلم.. مرة هنا فى أفق لا عنوان له. ومرات هناك عند أفق الجنون.

أقول: «فى هذه اللحظة أريد أن أعترف لك بشىء ما» يرد «لا ترددى، أرجوكى».

أقول «كنت خائفة».

يأخذ رشفة من الكأس المثلج المقترب من الانتهاء.. تسافر لحظة عيناه لأفق دهشة.. يسألنى «خائفة»؟! خائفة؟! مني؟

أجفف عرقا يتصبب مني كلما زادت جرأتي.. وأقول «ليس منك بالتحديد.. أنت فنان.. نعم.. وأنا فنانة.. نعم. لكن..

برقة يقاطعنى، فأتمنى معها لو قاطعنى حتى آخر الليل، وسأسعد أننى لم أختم الكلام.

يقول «عفوا.. هل هناك غير الفن.. أنا فنان.. أنت فنانة.. انتهى الأمر.. لم الخوف؟

أقول «الميراث الطويل خلفك وخلفى، يتآمر ضد فنك.. يتآمر ضد فنى. ميراث طويل خلفنا يدفعك إلى أن تكون مجرد رجل، لا يرى المرأة إلا ليلة محتملة على الفراش. ميراث طويل يجردنا من كل فرصة للخلود لا تأتى إلا مرة واحدة فى العمر. دعوتك الليلة وأنا مستعدة لاحتمالات المخاطرة. ما قيمة الأشياء المؤكدة

تماما ؟ » يصمت .. ثم يقول « لقد تحررت منذ زمن بعيد من هذا الميراث .. لا أنكر أنه حاول التمكن مِني .. لكنني كنت مصراً على ألا أستسلم .. على ألا أرث إلا ما يشرفني .. وإن بقيت فقيراً معدماً » .

أرد « وأنا مثلك لم أرث شيئا .. » يسألنى على ايقاع أهدأ « ألا تبحثين عن الرجل » .. أرد « أبحث عن الدهشة »

مَنْ قال أن الحقيقة أقل جمالا من الخيال وأقل أمانا ؟ فها هو قد أبحر بعيداً جداً عن كل شواطىء خيالى . وها نحن ننسج معا بخيوط قطعها العالم ، أسطورة تمشى على الأرض .. تنبض بالدم .. وتخرج من بين أيدينا فراشات ونجوما تعد بأرق حقيقة .

أصحبه إلى بيته فى سيارتى .

عهدت اللغة إذ أرغبها ثلجاً مقبلاً على الذوبان ، وعجينة طيعة بين يدىّ . وعهدت القلم خيالاً ماهراً يمتطى أصعب احساس . هذه المرة تتجمد ــ رغم حرارة الجو ــ اللغة . والقلم ــ دون اعتذار ــ يخذلنى . احساسى وهو جالس بجانبى الآن ، يتحدى مغروراً كل لغات العالم . فمن أين للكلمات بكلمات تفى حق البريق فى عيونى ؟

يسألنى متأهباً للنزول « كل هذه الليلة شكرلى ؟ »

قلت : « سددت الدين وأستطيع النوم » أرقبه يمشى مبتعداً عن سعادتى . وبينى وبين نفسى أهمس لخياله الرشيق « شكراً » .

وإذ أستعد للتحرك ، يأتينى مسرعاً وبعينين يطل منهما دفء يفيض عن حاجة البشر. أتوقف ، أفتح النافذة على يمينى وأسأله « أنسيت شيئاً ؟ » قال : « عفواً »

ذهب إلى حياته وذهبت إلى حياتى .

بـدون أوراق



فى عالم يتزين ويتعطر للأقزام، تقف شامخة على إحدى ضفاف النيل. يتستر تحت ألف غطاء وغطاء بينما تنتصب هى عارية دون أوراق.

أذكر معها بداية اللقـاء.

ليلة اكتمل فيها القمر، والدنيا المترامية حولى تبدو أكثر عدلاً إذ مسها فجأة المطر. أضواء «القاهرة»، تكتشف جريمة لا نعرف مَنْ فيها الجانى، ومَنْ الضحية. نسيم رقيق ــ فى استحياء ــ يداعب الوجوه المتوسلة ليلة مختلفة. والنيل فى مسيرته الخالدة، يتفرج على مَنْ نهايتهم الفناء. ورغم معرفته للأسرار، إلا أن الكل فى أحضانه سواء.

أذكر معها بداية اللقـاء.

فجأة تدخل تأملاتى.. توقظ شرودى، وتثير اهتماماً ظننته سافر دون عودة. بإلحاح ــ لا يفقد كرامته ــ تدق أبواباً منذ زمن مغلقة. أستجيب.. أفتح ــ دون حذر معتاد ــ الأبواب، وفرحة أخرج للقياها.

أندهش. كيف عرفت إحتياجى إليها؟ بعد أن استنفذت عالم البشر. كيف أتاها صوتى الهامس، فى عالم يتنفس عبر مكبرات الصوت؟ وكيف ميزتنى من بين كل المتأملات الشاردات؟

فيها أرتمى.. على أغصانها أتقلب وأحذر ألا أخدشها. أتذوقها، فأعرف لم عدم احتياجها إلى أوراق. مذاقها يضن بسر

حلاوته فأعيد التذوق. وتتركني أفعل، مستسلمة لظمأ لا يرويه بشر. أغصانها الجافة أعادت انتعاشاً ما لقلبي المقبل على الذبول. أغصانها المتشابكة تدخل في سواد الليل، فتتشكل عذبة قصائد في دمي، رغم أني لست بشاعرة.

نرقص.. نتحاور.. نغني..

أبوح بما لا يحبه الرجال ولا تعيه النساء. وتكشف عن مؤامرة لقتل الأشجار. أعزيها.. ترفض العزاء قائلة: «وهل أنتِ أفضل حالاً؟». نتبادل لحظة الأقدار. تصبح هي امرأة. وأصبح أنا شجرة. مَنْ فينا الخاسرة ومَنْ الفائزة؟ لا نعرف..

لم تسألني الألف سؤال المألوفة.

لم يهمها أن تعرف أي توقيت تتبع له دقات قلبي. وكم مرة ترمش عيني في الدقيقة. ويا لدهشتي. لم يخطر بأغصانها أن تعرف هل أعيش مع رجل أم أعيش مع مبدأ. اكتفاء متفرع بين الأغصان يخجل حضارة متطفلة. ويشعرني بقوة مفاجئة، فأقرر ورأسي إلى السماء: لا يأس مع الشجر.

أتركها لحضارتها الملتصقة بالأرض، وإلى بيتي أعود. لكنها لم تتركني. منذ كان اللقاء، وهي معي. شرقي وغربي، جنوبي وشمالي. في غفوتي وفي يقظتي. في بعض الأحيان، كالومضة مضيئة تظهر. ثم لا تلبث أن تختفي. في أحيان أخرى تبقى وقتاً أطول. لكنها في كل الأحوال، تخايل —بشيء غامض— وجودي.

حيرتنى . ماذا تريد مِنى ؟ وهى القوية وأنا الضعيفة . ما الذى يمكن أن يريده الشموخ من الضآلة ؟ ماذا تريدين أيتها الشجرة الحرة من امرأة تخاف فك الأسر ؟

ماذا تريد ؟

ظهورها المتواصل يوحى إلىّ بشىء ما ، أحس أننى غير مهيأة لإستقباله . السؤال هل سأظل متفرجة ، إلى حين يحدث التهيؤ ؟ ومَنْ يدرى .. قد لا يحدث أبداً . قد أظل متسائلة عن الأمر .. حائرة فيه ، تؤرجحنى احتمالاته إلى أجل غير مُسمى .

آمنت بالشجرة ، فلماذا لا أكتب عنها ؟ ! !

ترى هل ستحب ثمرة تلك الليلة المكتمل فيها القمر ؟ هل ستدخل إلى سطورى ، كما دخلت إلى أغصانها ؟ هل ؟ وهل ؟ وهل ؟ ..

سأزورها الليلة وأعرف .

المحتويات

صـــدر للكاتبــة

أجمل يوم اختلفنا فيه	مجموعة قصص	دار نشر مدبولى يناير ١٩٨٧ القاهرة ــ مصر
رجل جديد فى الأفق	مجموعة مقالات	دار نشر تضامن المرأة العربية سبتمبر ١٩٨٨ القاهرة ــ مصر

رقم الإيداع : ٥٧٣٠ / ١٩٩٠
I . S . B . N .
977 - 208 - 006 - 0

عربية للطباعة والنشر
١٥ ش نابلس ـ ميدان موسى جلال ـ المهندسين
من ش شهاب ـ أمام مسجد طارق بن زياد
ت : ٣٤٦٥٣٧٦